

نجوى الفروب

قراءة ممتعة
مع تخبيات يحيى الصوفي
مؤسس ورئيس تحرير موقع

القصة السورية
Syrian Story

مِيَخَائِيل نَعَيْمَه

نجوى الفروب



مُؤسَّسَة نُوفُل

بَيْرُوت، بَلْقَان

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف والناشر

الطبعة الثانية

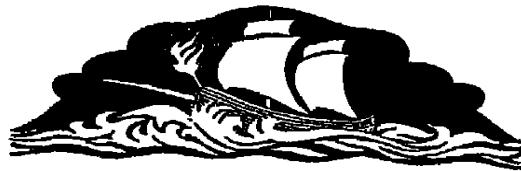
۱۹۸۰



© موسسه نوبل شریعتی

عجائبك يا رب تكتنفي
منذ أن خرجم من بطن أمي
وحتى شارفت شمسي على الغروب .
وأصغرها أكبر من أن يحيط به أي عقل ،
أو أن يستوعبه أي خيال ،
أو أن ترسمه ريشة ويصفه قلم ،
أو أن تتلفظ به شفтан ولسان .
وأنا وسط هذه العجائب

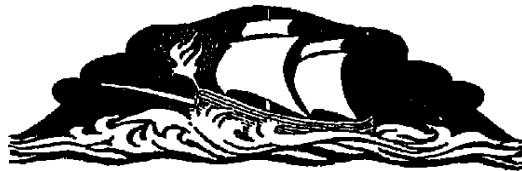
أقف خاشعاً مشدوهاً ، وذاهلاً عن نفسي .
ويُخَيِّلُ إِلَيَّ أَنِّي العجيبةُ الكبُرِيَّ .



إِنْ فَتَحْتَ عَيْنِيْ أَوْ أَغْمَضْتَهُمَا
فَعَلَى أَلْفِ أَلْفِ عَجِيبَةِ .
وَإِنْ فَتَحْتَ فَمِيْ أَوْ أَطْبَقْتَهُ
فَعَلَى أَلْفِ أَلْفِ عَجِيبَةِ .
بِالْعَجَائِبِ أَقْتَاتَ وَأَرْتُوِيْ ،
وَبِالْعَجَائِبِ أَسْتَرَ عَرَبِيْ ،
وَعَلَى الْعَجَائِبِ أَمْشِيْ ،
وَمَعَ الْعَجَائِبِ أَنَامَ وَأَقْوَمَ .

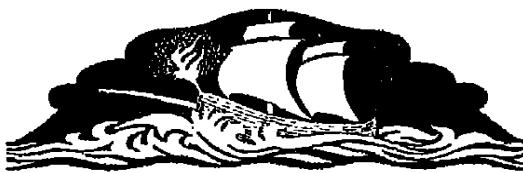
نفسِي عجيبة ،
ودمي عجيبة ،
وكلّ خلية في جسدي عجيبة .
وأعجبها على الإطلاق
تلك الخلايا التي تحتويها جمجمتي
والتي انطبعَت فيها آثار حياتي كلُّها
على مدى ثلاثة وثمانين من الأعوام .
ما فَكَرْت فكرًا ،
ولا حلمت حلمًا ،
ولا اشتَهَيت شهوة ،
ولا نويت نية ،
ولا أَبصَرت صورة ،
ولا سمعت صوتًا ،
ولا تذوقت طعمًا ،
ولا لمست شيئاً أو شمت رائحة ،

وَلَا تَلْفَظَتْ بِكَلْمَةٍ
إِلَّا انْحَفَرَتْ جَمِيعُهَا فِي تَلْكَ الْخَلَايَا الْعَجِيبَةِ .
فَمَا أَعْظَمْكَ ؛ وَمَا أَعْجَبْنِي يَا رَبِّ !



فِي فَضَائِكَ الْلَّامِتَنَاهِي
أَقْمَارٌ وَشَمُوسٌ وَمَجَرَّاتٌ
لَا حَصْرٌ لِأَعْدَادِهَا وَأَبْعَادِهَا ،
وَلَا شَكَاهَا وَأَحْجَامِهَا ،
وَلِلْسُبُلِ الَّتِي تَسْلِكُهَا .
بَعْضُهَا يَدُورُ عَلَى ذَاتِهِ ،
وَبَعْضُهَا يَدُورُ حَوْلَ بَعْضِهِ .

لكنّها جميعها تدور ،
وبسرعة هائلة ،
فلا يرتطم هذا بذاك ،
ولا يقطع الواحد الطريق على الآخر .
تدور ، وتدور ، وتدور
منذ ملايين السنين ،
وستبقى تدور ملايين السنين
دون أن ترُنّح ،
ودون أن يغلبها تعب أو نعاس .
وهي في دورانها تغنى .
لكنْ أذني البليدة ،
المثقلة بأصوات غير أصواتها ،
لا تسمع الغناء ،
وتسمعه روحي
فتطرّب وتنتشي حتى الإغماء .



بَيْنَ تِلْكَ الْأَقْمَارِ وَالشَّمْوَسِ وَالْمُجَرَّاتِ -
وَكُلُّهَا كَرَوِيٌّ -
كُرَيْثَةٌ تَدْعُى الْأَرْضَ .

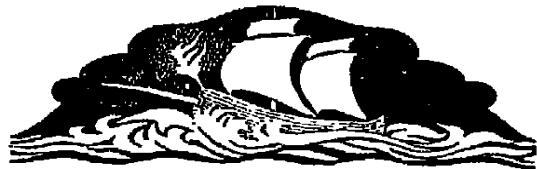
وَهَذِهِ قَدْ جَعَلْتَهَا يَا رَبِّي مَسْكَنًا لِي
وَلِبَنِي جَنْسِي ،
وَلِجِيُوشِ جَرَّارَةِ مِنَ الْأَحْيَاءِ غَيْرِنَا
مَا بَيْنَ نَبَاتٍ وَحَشَراتٍ ،
وَطِيرٍ وَحِيوانٍ .

وَجَعَلْتَ هَذِهِ كُلُّهَا أَصْنَافًا وَأَجْنَاسًا
تَتَقَارَبُ وَتَتَشَابَهُ فِي جَوَانِبِ كَثِيرَةٍ

وتتباعد وتتختلف في جوانب كثيرة .
ولكنّها جميعها - من أصغرها إلى أكبرها -
تؤلّف فتنة تلو فتنة للعين والفكر ،
وللخيال والوجدان .
ولقد زينت الأرض ، فوق ذلك ،
أروع الزينة :
زينتها بالجبال والأنهار والبحار ،
وبالليل والنهار ،
وبالفصول تتعاقب عاماً بعد عام ،
وبالأديم الأزرق المجلو حيناً كالمرأة ،
والمحنّع حيناً بالسحاب والضباب .
زينتها بالأصوات العجيبة
التي تنطلق من حناجر سكّانها
ما بين آدميين وغير آدميين ،
وجعلت هذه الأصوات تأتّلّف

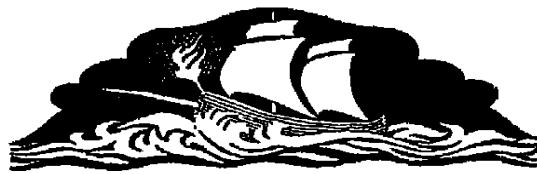
في سمفونية عجيبة
هي سمفونية الأرض .
زيّنتها بأشكال لا تقع تحت حصر وعدّ ،
وبالألوان تخلب العين واللبّ ،
وضمّختها بكلّ أصناف العطور ،
وغسلت وجهها بالنور ،
وحشوت جوفها بالنار ،
فراحت تتفجر حيناً بالزلزال ،
وأحياناً بالبراكيں .
وأرسلت الرياح تواكبها في سيرها الطويل ،
فآناً ترّنّم لها التهاويد والأناشيد ،
وآونة تهدر وتز مجر وتعربد .
وأنا المحمول على ظهر الأرض
أدور معها وأدور
غير شاعر باني أدور .

فَكَانَ بَيْتِي هُوَ الْقَلْعَةُ الْمُنِيعَةُ ، الصَّامِدَةُ ،
وَكَانَهُ مِنَ الْأَرْضِ مَحْوَرُهَا ،
بَلْ كَانَهُ مَحْوَرُ الْمُسْكُونَةِ بَأْسِرَهَا .



إِيْ ، عَجِيبَةُ هِيَ أَرْضِكَ يَا رَبِّي
وَعَجِيبٌ كُلُّ مَا فِيهَا وَمَا عَلَيْهَا ،
مِنْ أَصْغَرْ جَرْثُومَةٍ وَبَعْوَضَةٍ
حَتَّى أَكْبَرْ فَيْلٍ وَحُوتٍ ،
وَمِنْ ذَرَّةِ الرَّمْلِ وَقَطْرَةِ المَاءِ
حَتَّى أَعْلَى جَبَلٍ وَأَوْسَعِ مَحِيطٍ ،
وَمِنْ أَحْقَرِ نَبْتَةٍ حَتَّى أَعْنَى أَرْزَةً .

ولعلَّ أَعْجَبْ عجائبك في الْأَرْضِ
هي هذه الغرائز المذهلة التي بها سُلْحتَ سُكَّانها ،
والتي بها يهتدون إِلَى مَا يَأْكُلون وَيَشْرُبُون ،
وَيَعْرُفُونَ أَيْنَ ، وَكَيْفَ ، وَمَتَى عَنْهُ يَفْتَشُونَ ،
مَثَلًا يَعْرُفُونَ أَيْنَ ، وَكَيْفَ ، وَمَتَى يَتَوَاصِلُونَ وَيَتَنَاسِلُونَ
وَيَعْرُفُونَ كَيْفَ عَنْ أَنْفُسِهِمْ
وَعَنْ صَغَارِهِمْ وَحِيَاضِهِمْ يَدَافِعُونَ ،
وَيَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ اللَّيلِ وَالنَّهَارِ
مَتَى يَعْمَلُونَ وَمَتَى يَسْتَرِيحُونَ ،
وَمَتَى يَنَامُونَ وَيَقْوِمُونَ .
وَيَقْرَأُونَ فِي كِتَابِ الفَصُولِ
أَنَّى يَقِيمُونَ وَأَنَّى يَرْتَحِلُونَ .



أَمَا أَنَا وَبْنِي جَنْسِي
فَقُدْ مَيْتَنِي يَا رَبِّي ،
فُوقَ الْغَرِيزَةِ ،
بِالنُّطْقِ ، وَبِالْعُقْلِ ، وَبِالْخِيَالِ ، وَبِالْحَدْسِ ، وَبِالْإِرَادَةِ ،
وَبِعِرْفَةِ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ .
وَمِنْ هَذَا مَصْدِرٌ هَنَائِي وَشَقَائِي .
بِالنُّطْقِ نَتَفَاهُمْ أَنَا وَإِخْوَانِي النَّاسُ فَنَتَقَارِبُ ،
وَبِالنُّطْقِ لَا نَتَفَاهُمْ فَنَتَبَاعِدُ .
وَكَثِيرًا مَا نَتَخَاصِمُ وَنَتَنَاهِشُ
إِلَى حَدٍّ أَنْ نَهْرُ دَمَاعَنَا ،
وَنَدْمُرُ الْعَامِرَ مِنْ دِيَارَنَا ،
وَنَرْمُلُ نَسَاعَنَا ،

ونيّتم أطفالنا ،
ونعّمّ أرضنا .

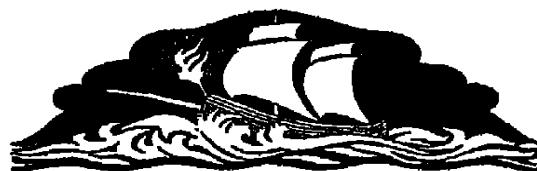
فـكـانـمـا الكلمة سيف ذو حـدـين :
حد صالح ، وحد طالع .
أو كانـمـا الكلمة هـمـزة وصلـ
وهـمـزة قـطـع في آـنـ مـعاـ .
أو كانـهـا العـسـل المـزـوج بالـحـنـظـلـ .
بالـنـطـق أـسـلـكـ مـسـالـكـ العـشـاقـ ،
وبـالـنـطـق أـكـرـهـ حتى الـاحـتـرـاقـ .
بالـنـطـق أـغـنـيـ
وبـالـنـطـق أـنـدـبـ .
بالـنـطـق أـصـلـيـ ،
وبـالـنـطـق أـعـربـ .
بالـنـطـق أـنـاجـيكـ ،
وبـالـنـطـق أـجـافـيكـ .

بالنطق أشهد لك ،
وبالنطق أشهد عليك .

ولو كان السكت المطبق بمستطاع
لأثرت السكت .

أمْقاضي عَلَيْ يَا رَبِّي
أَنْ أَعِيش ممْزَقاً

بَيْنَ نَطْقٍ لَا يَنْقَعُ غَلَّتِي
وَسَكُوتٍ غَيْرِ مُسْتَطِاعٍ ؟



والعقل يَا رَبِّي ،
أَيْ عجِيبة هُوَ !

أَيْ عَطِيَّةٌ هُوَ !!

أَيْ بَلِيَّةٌ هُوَ !!!

جَوَابٌ آفَاقٌ هُوَ الْعُقْلُ ،

لَا يَسْتَقِرُ لِحَظَةٍ وَاحِدَةٍ فِي مَكَانٍ وَاحِدٍ ،

وَلَا يَسِيرُ فِي اتِّجَاهٍ وَاحِدٍ ،

فَكَانَهُ الْبَرْقُ فِي السَّحَابِ .

أَمَّا مَطَايِاهُ فِي تَجْوِالِهِ

فَالْعَيْنُ وَالْأُذْنُ ،

وَالأنفُ وَاللِّسَانُ ،

وَالْيَدَانُ وَالرِّجْلَانُ .

وَهُوَ حَرِيصٌ أَنْ يَجْمِعَ كُلَّ مَا تَبَصِّرُهُ الْعَيْنُ ،

وَكُلَّ مَا تَسْمِعُهُ الْأُذْنُ ،

وَكُلَّ مَا يَشْمَهُ الْأَنفُ ،

وَكُلَّ مَا يَتَذَوَّقُهُ اللِّسَانُ ،

وَكُلَّ مَا تَتَلَمَّسُهُ الْيَدَانُ وَالرِّجْلَانُ ،

وأن يخزنه في ذلك الكشكول العجيب
الذي تحتويه جمجمتي .

وهو يخزنه هناك
دون أن يختلط حابله بنابله ،
ودون أن يرجم بعضه بعضاً ،
أو أن يمحو بعضه بعضاً .
بل إن العقل - ونهنا العجب العجاب -
يستطيع أن يُخرج من ذلك الكشكول ما يشاء
ساعة يشاء ،
دون أن ينقص ما في الكشكول أو يزيد ،
ودون أن يطرأ أي تعديل في ترتيبه
بالنسبة إلى ما حواليه .
والعقل لا ينفك يتلهى بمحتويات كشكوله
 تماماً كما يتلهى الطفل بالدمى .
مع الفارق أن الطفل

ينصرف من حين إلى حين عن دماه ،
أما العقل فلا ينصرف لحظة واحدة عن كشكوله ،
لا في النهار ، ولا في الليل .

وهو إن لم يكن لديه من جديد يضيفه إلى قديمه
راح يقلب القديم على ألف وجه وجه ،
فكانه البقرة تجتر ما في معدتها
دون أن يتعب فگاها .

ولولا ذلك لما كان للعقل
أن يصل دقيقة بالي قبلها وبعدها ،
وأمسه بيومه ،
ويومه بعده .

ولما كان له أن يتصرف بشؤون الجسد
على ما في تصرفه أحياناً كثيرة
من جهل ورعونة وهو طائش .

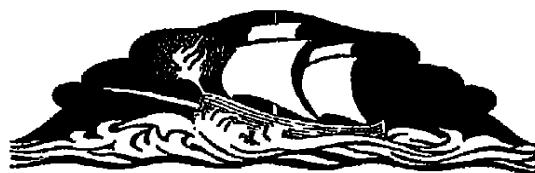
وتاماً كما ينشغف الطفل بدمية متحرّكة

فيمضي يتفحّصها ليعرف السرّ في حركتها
ينشغف العقل بما حواليه من أشياء
جامدة ومتحرّكة
فيمضي يعالجها ليعرف سرّ تركيبها
وسرّ الحركة فيها.

وأنا ما نسيت ، ولن أنسى ، دقائق في البرية
تسمرّ فيها بصري على بقعة من التراب الناعم
لا تزيد على البوصة الواحدة .
لقد كان التراب يتحرّك
حركة لا تكاد تبصرها العين .
فشاقي أن أعرف المحرك .
وأجهدت بصري في التفتيش عنه ،
ولكن دون جدوى .
ومرّت دقائق طوال
والحركة البطيئة في التراب الناعم لم تنقطع .

وعيّل صيري ، أو كاد ،
عندما أبصرت في النهاية دويّة حمراء ،
حجمها حجم رأس الدبّوس ،
تدفع التراب بأرجل لا تراها عيني .
فراح عقلي يتسأّل بمنتهى الدهشة :
أين في هذه الدويّة جهاز البصر ،
وустройة السمع ،
وустройة التنفس ،
وустройة الحركة ،
وустройة الهضم ،
وустройة التناسل ؟
وكيف تهتدي إلى رزقها ،
وإلى أبناء وبنات جنسها ؟
وهل هي تعيش عاماً ، أم أعواماً ،
أم بعض العام ، أم بعض الشهر ؟

ولماذا هي الآن هنا
 في هذا العين الضيق جداً
 من رقعة الأرض الواسعة ؟
 وما غاية الأرض وأبناء الأرض منها ؟
 وما غايتها من الأرض وأبناء الأرض ؟
 بل ما غاية المسكونة منها ؟
 وغايتها من المسكونة ؟
 ولكن العقل يرتد عاجزاً ، حائراً ،
 ويلوذ بالصمت الرهيب .



إلا أن العقل عنيد ويتأبى الاندحار ،

ويرهقه الصمت الطويل .

وكان بي به ضاق ذرعاً بالحواس التي اتخذها مطايما له
فراح يعمل على توسيع آفاقها وزيادة سرعتها .

فابتدع للعين المجهر

تبصر به ما كان متناهياً في الصغر ،
كالذريرات التي منها يتَّلَفُ الجوهر الفرد .

وابتدع لها المربج

تبصر به الكثير مما هو متناه في الضخامة ،
كالكواكب التي تبعد عن كوكبنا
ملايين السنوات الضئيلة .

مثلكما ابتدع أجهزة معقدة
يقيس بها أحجام الكواكب
وسرعتها وأبعادها .

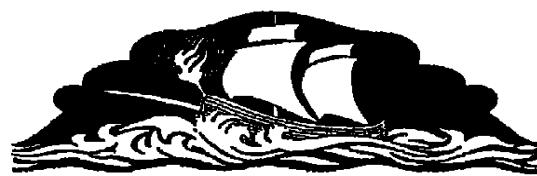
وابتدع لها التلفزيون تبصر على شاشته
ما يجري في أقصى المشرق

وهي قابعة في زاوية من دارها
في أقصى المغرب .

وضائق العقل
أن تكون الأذن محدودة المدى
فأسعفها بالتلفون والراديو
فباتت تسمع على مدى آلاف الأميال .
وضائقه أن تكون الرجل بطيئة الحركة
فاخترع السيارة والطياره ،
واخترع الصاروخ الذي به بلغ القمر ،
وبلغت بعض مركباته الفضائية الزهرة .
واعتنى العقل بمنجزاته ،
وتباھي ، وتنمرد .
وخيّل إليه
أنه بات على عتبة اكتشاف السر الأكبر -
سر الأسرار -

سرّ الحياة التي تتجسد في الأشياء
وما هي بالشيء ،
والتي تجعل الأشياء تنمو وتنحل ،
أمّا هي فلا تنمو ولا تنحل .
إنّها في البذرة التي منها النبات ،
ولكنّها ليست البذرة .
وإنّها في النطفة
التي منها الطير والحيوان والانسان ،
ولكنّها ليست النطفة .
وإنّها في كل سائل وجامد ،
ولكنّها ليست السائل ولا الجامد .
فهذه جمّيعها ، على وفرة أشكالها وألوانها ،
وحرّكاتها وأصواتها ،
ليست سوى الحجب
تتحجّب بها الحياة عن الحواسّ .

فكأني بك يا ربّي -
 وأنت الحياة -
 أردت لنا -
 ونحن أطفالك -
 أن ندرج في إدراكك
 من المحسوسات التي تجسّدتَ وجسّدتنا فيها
 إلى الحياة التي هي أنت ،
 والتي أودعتها فينا .
 فالحياة لا يُدركها إلّا الحياة .



لذلك يا ربّي أراني معذبًا بعقلٍ

وبالمطایا التي يمتنعها لبلوغ أهدافه .
 فهو منذ أن كنت وكان
 ما برح يلوح لي بالسعادة :
 بالتحكم في قوى الطبيعة
 التي تتحكم اليوم في ،
 بالعدل والحرية ،
 بالإباء والمساواة ،
 بالعافية التي لا يمسها مرض ،
 بالمعرفة التي لا يفوتها علم شيء ،
 بالبهجة والرخاء ،
 بالنظام الأَمْثَل في مسالك العيش جميعها ،
 حتى وبالتألُّب - يوماً ما - على الموت .
 وهذا أنا -
 ولست غير واحد من ملايين أبناء الأرض -
 يمزقني القلق والخوف من سوء المصير .

ففي كلّ يوم ،
بل في كل ساعة ،
تتواثب على مشكلاتي
ومشكلات الناس .

تتواثب من أفواه الناس ،
ومن أعمدة الصحف ،
ومن المذيع وشاشة التلفزيون ،
ومن أرصفة المدن وشعاب الدساكير .

فينبري العقل لحلّها ،
إلا أنه لا يحلّ واحدة منها -
أو يظنّ أنه حلّها -
حتى يخلق اثنتين .

فمن شأن المشكلات أن تلد المشكلات .
والمشكلات لا تلد إلا التّوائم ،
بل أكثر من توائم .

وهكذا أعيش ويعيش الناس
في دوّامة رهيبة من القيل والقال ،
والحركة التي لا تُفضي إلى بركة ،
والنزاع المسلح وغير المسلّح .

وما أكثر ما يكون النزاع غير المسلّح
أشدّ فتكاً وهوأ من النزاع المسلّح .

لكنك يا ربّي كنت رفيقاً منتهى الرفق بي
عندما سلّحتني بالخيال .

فبالخيال أستطيع أن أنتشل نفسي ،
ولو لحين ،

من دردور البشاعات والتفاهات ،
والتهافت على السّراب .

وبالخيال أخلق عوالم وأمحو عوالم .
لا . لا أخلق شيئاً من لا شيء .

بل أخلق من الموجود ما ليس بوجود .

بالخيال أُرْصِع سقف بيتي بالكواكب ،
وأَرْصَف أَرْض بيتي بالجواهر ،
وأَكْحَل عيني بمرود الجمال ،
فلا ترى غير الجمال .

وأَمسح أنفي بعطر الورود ،
وأَسْمِع أذني نشيد الخلود .

بالخيال أَجْمَع الأَضَدَاد
وأَخْتَصَرَ الْأَبْعَادَ .

بالخيال أَتَخْطَّى حدود المألوف والمعقول ،
وأَبْصِر آثار قدَمِي في كلّ تربة ،
وأَجذوري في كلّ كوكب ،
وأشتم رائحة أنفاسي أينما كان
في رحاب الفضاء ،

وأتلaci في أي لحظة
بكل ما عملت وفَكَرت ،

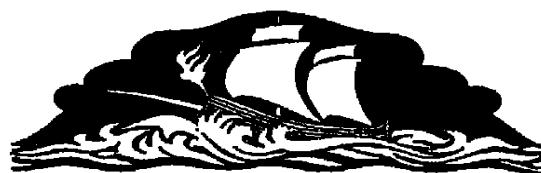
ونويتُ واشتهيت ،
ويكلّ بسمة انفرجت عنها شفتاي ،
وكلّ عَبرة ذرفتها عيناي .
بالخيال أشرع أبواب نفسي
لكلّ ما في الكون ،
فلا قريب وغريب ،
ولا أصيل ودخيل .
وبالخيال أشرع جرار نفسي
بسلافة ما كان ، وما هو كائن ، وما سيكون .
فأشرب وأنتشي ،
ويشرب وينتشي الكون ،
وتتمزّق الأقنعة المزيّفة
عن وجه الواقع المزيّف
فإذا هو خدعة ،
أو فزّاعة

كتلك التي يقيمها صاحب الكرم في كرمه
ليخيف بها الثعالب والعصافير
وأبناء السبيل .

ولكنّ الخيال ، على روعته وجراّته ،
سرعان ما ينهزم من وجه الحواسّ
ووجه العقلِ الذي من وراء الحواسّ .

وسرعان ما يعود العقل
فيأخذ الدفَّة

ويقود السفينة في البحار الصاخبات ،
وليس من يسأّل الربّان :
إلى أين ؟



والحدس يا ربّي !

إنه البرق في الغيوم الدُّكْن ،
وفي الدجّات الحالكات .

يومض بغترة

فيكشح الظلمات

عن دنيوات شاسعات ، ساحرات ،

وبغترة يخبو نوره ،

وتمحّى دربه

في مفازات الغيوم .

إلا أنَّ ما يكشفه من دنيوات

ينطبع في أعمق أعمق النفس

فلا يحول ، ولا يزول .

وسانحة عجيبة هو الحدس

تمرّ في الخاطر مرور الشهاب في الفضاء ،

وأنا لا أدرى من أين جاءت ،
وكيف مرّت ،
وإلى أين تمضي .

وأدرى أنها تركت في النفس ثلعة عميقة
تشع بالنور .

بمثل هذه السانحة ،
أو بمثل تلك البارقة ،
لا يعني الترابيتين ،
أبصرت يا ربّي فضاءك اللامتناهي
وكلّ ما فيه
مكهراً وممغطأً بذرياتٍ
يستحيل على أيّ مجهر أن يراها ،
لا اليوم ولا في أيّ يوم .

وتراءى لي
أنَّ تلك الذريات

هي الحياة ،

وأنَّ ما يكهرها ويمغناطها ليس إلَّا المحبة .

وابصرتك يا ربِّي تملأُ الفضاء من الأزل
وإلى الأَبْد .

فأَنْتَ وحدك لا يحصرك زمانٌ أو مكان .

وأَنْتَ وحدك الحياة .

وأَنْتَ وحدك المحبة .

أمّا أنا فلا أَزال رهين الزمان والمكان ،

ورهين النمو والانحلال ،

ورهين البعض والكراهية .

إلَّا أنِّي أَعلم حقَّ العلم

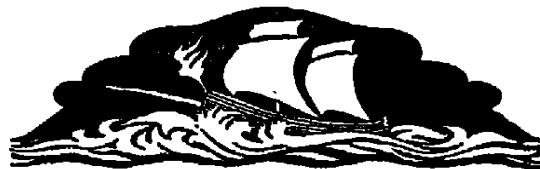
أنك لا ترضى لي أن أَبْقى كذلك إلى الأَبْد .

فهل أنا غير طفك الحبيب ،

وتلميذك النجيب ،

والهيكل العجيب الذي بننته

ليتجلى فيه وجه الحياة - حياتك ،
 والمحبة - محبتك ؟
 ويقول لي الناس :
 « هاتِ برهانك ! »
 فاحزن . وألوذ بالصمت الطويل ،
 والصبر الجميل



وبالصبر والصمت أعود إلى نفسي
 فأشغوص إلى أعمق أعماقها .
 وهناك ألتقي الاشواق
 التي زرعتها يا ربّي في تلك الاعماق :

شوفي إلى العدل

الذي بدونه لا يستقيم لي ميزان.

وشوفي إلى الحرية

التي لا يحدّها حدّ ،

ولا يحصرها زمان أو مكان.

وشوفي إلى المعرفة

التي لا يخفاها علم أي شيء ،

والتي بدونها لا يتم أي كيان.

وشوفي إلى الخلود الذي بدونه

لا طعم ولا معنى للوجود.

ويسعدني أن أرى الزارع يتّعهد زرعه ،

وأنَّ الزرع ينمو باستمرار.

لكنّما سعادتي لا تطول ،

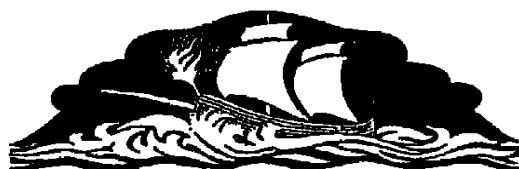
إذ لا يلبت الحدس الذي قادني إليها

أن يفرّ من الميدان

عندما تزحف عليه جيوش العقل الجرّارة .
وجيوش العقل المهيمن على الجسد
هي حاجات الجسد ومتطلباته ،
ونزواته وشهواته ،
وأطماعه وأوجاعه ،
والمخاوف التي تنهشه نهشاً
من الانحلال والاضمحلال ،
وسعيه اليائس
إلى تكييف كلّ من حواليه وما حواليه على هواه .
وإذا اعتبرنا سكّان الأرض اليوم
في نحو ثلاثة آلاف مليون ونصف المليون
فذلك يعني
أنّ هناك مثل ذلك العدد من العقول
التي يحاول كلّ منها
أن يكّيف الأرض والسماء

وَجَمِيعٍ مَا فِيهِمَا
حَسْبٌ هُوَهُ.

وَفِي ذَلِكَ مَا فِيهِ مِنَ الْغَرُورِ وَالْجُنُونِ.
أَمَّا الْعُقْلُ الْأَوَّلُ وَالْأَكْبَرُ، يَا رَبِّي،
الَّذِي يَدْبِرُ الْكَوْنَ بِجُزْئِيَّاتِهِ وَكُلِّيَّاتِهِ،
وَبِآزَالَةِ وَآبَادَةِ،
فَقَلَّمَا يَلْقَوْنَ إِلَيْهِ أَيّْ بَالٍ.
وَذَلِكَ الْعُقْلُ هُوَ أَنْتَ.



وَأَمَّا الْإِرَادَةُ، يَا رَبِّي،
فَإِنِّي لَا بُتَّهُجُ بِهَا أَيْمًا ابْتِهَاجٍ.

وإنّه ليغريني ويدفعنّي كبرياتي
أنّ أقول أمام نفسي وأمام الناس :
«إني أريد كيت وكيت».

وأنا لو جئت أحصي الأمور التي أردتها
وحصلت عليها فاغتبطت ،
والامور التي أردتها ولم أحصل عليها فانسحقت
لما استطعت أن أحصيها .

إلا أن حافظتي تعج بذكريات الساعات
التي أمضيتها في التحرق والتمزق ،
والليالي التي سهرتها مع القلق والأرق ،
لا لسبب

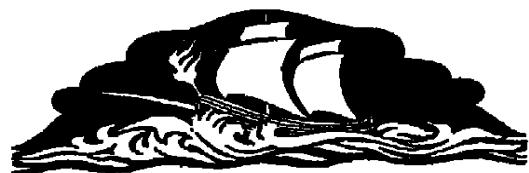
إلا لأنّي أردت أشياء وأشياء
فلم أدركها ،

وكثيراً ما أدركت نقيضها بال تمام ،
وفي ذاكرتي كذلك آثار قنواتٍ

كانت في بعض الساعات متربعة بالدموع ،
وآثار الْلَوَاح انحفرت عليها
أَكْثَر من «آخِ» و«آهِ» و«أَوَّاهِ» ،
وآثار أَسَارِير سُوَدَّتها الخيبة ،
وآثار عزيمة هشَّها الإِنْدَهَار ،
وآثار فلولٍ هزيلة
هي فلولٍ إِرَادَتِي المهزيلة
تتهافت في انسحابها
من وجه الْإِرَادَة الكونيَّة
التي هي إِرَادَتِك .
وكيف لا إِرَادَتِي ، يا ربِّي ، أَن تنازل إِرَادَتِك ؟
كيف لورقة على غصن
أَن تريده ما لا يريده الغصن ؟
بل ما تريده الشجرة كلها ؟
بل ما تريده التربة والشمس والبحر والهواء ؟

بل ما يريده الكون؟
كيف لي، وأنا أجهل أمري القريب والبعيد،
أن أعرف ماذا يحمله إلّي يومي
فأريده وأهناً،
ولا أريد غيره فأشقى؟
عظيم هو الفرق بين إرادة العارف
وإرادة الجاهل.
وأنا جاهل يا ربّي.
وأنت وحدك العارف.
لكنّما الجهل هو الطريق إلى المعرفة،
وهو طريق كثير الحُفَر والآخاديد والمزالق،
مفروش بالقتاد، وشظايا الزجاج.
ولا بدّ لسالكه من أن تدمى يداه ورجلاه،
ويعرق فكره وقلبه،
وتخور قواه

قبل أن يدرك الهدف .
 وإلا فـأي خير لنا في معرفةٍ
 لا ندفع ثمنها أرقاً وعرقاً ودماء؟
 إنها كالأكل والشرب في المنام .
 ولأنني جاهل وأقر بجهلي ،
 ولأنك عارف وينبوع المعرفة ،
 فخذ يا ربّي بيدي
 لاقطع طريقي الطويل ، الشائك ، العسير إليك .
 حتى إذا ارتويت من ينبعوك
 تمكنت من أن أقول :
 «إني أريد»
 فكان لي ما أريد .



طفلك أنا ، يا ربّي .

والقوى الهائلة التي أودعتها كياني

لا زالت جميعها في طور الطفولة .

وأنت الذي يتعهّدها ، لا أنا .

وعليّ أن أتحمل رعونتها وطيشها .

ريشما تبلغ سنّ الرشد — رشك
نطقي نطق الأطفال .

عقلي عقل الأطفال .

خيالي خيال الأطفال .

طفل هو حديسي .

وطفلة هي إرادتي .

وطفلة هي المعرفة الناتجة عن هذه كلّها :

معرفة الخير والشرّ .

ومثلكما يلهمه الطفل بالدمى

أَلْهُو أَنَا بِهَذِهِ الْقُوَىِ .

وأَحَبُّ تَدْلِكَ الدُّمَى إِلَى قَلْبِي

هِي الدُّمَيْةُ الَّتِي مِنْهَا سَائِرُ الدُّمَى ،

وَالَّتِي أَدْعُوهَا «أَنَا» .

فَهَذِهِ أَعْتَزُّ بِهَا مِنْتَهِي الإِعْتِزَازِ ،

وَأَنْافَعُ عَنْهَا بِكُلِّ مَا أَمْلَكَ

مِنْ حِيلَةٍ ، وَدَهَاءٍ ، وَقُوَّةٍ ،

وَأَرِيدُ لَهَا أَنْ تَبْقَى مَا بَقِيَ الزَّمَانُ .

وَنَسِيتُ ، يَا رَبِّي ، - أَوْ تَنَاسِيتُ -

- أَنَّ هَذِهِ الـ«أَنَا» - أَوْ هَذِهِ الْذَّاتُ -

لَا وِجْدَهُ لَهَا إِلَّا فِي ذَاتِكَ ،

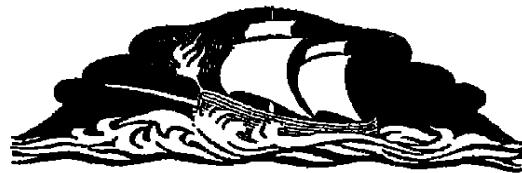
وَلَا حِيَاةُ لَهَا إِلَّا فِي حِيَاتِكَ ،

وَلَا إِرَادَةُ لَهَا إِلَّا مِنْ إِرَادَتِكَ .

وَلَا نَهَا طَفْلَةُ ، جَاهِلَةُ ، مَزْهُوَةُ ، رَعْنَاءُ

أَبْتَ إِلَّا أَنْ تُسْتَقْلَ بِذَاتِهَا عَنْ ذَاتِكَ ،
وَبِإِرَادَتِهَا عَنْ إِرَادَتِكَ ،
وَبِعِلْمِهَا عَنْ عِلْمِكَ .
فَكَانَتْ «الخطيئَةُ» ،
وَكَانَ جَزَاءُ الخطيئَةِ الْمَوْتُ :
مَوْتُ الذَّاتِ الْمَنْفَصِلَةِ عَنْ ذَاتِكَ .
وَمَوْتُ الإِرَادَةِ الْمَسْتَقْلَةِ عَنْ إِرَادَتِكَ .
ثُمَّ كَانَ طَرِيقُ التَّكْفِيرِ عَنِ الْخَطِيئَةِ -
طَرِيقُ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ -
وَيَا لِطُولِهِ ، وَيَا هُولِهِ مِنْ طَرِيقٍ !
وَهَذَا الطَّرِيقُ ، مَتَى بَلَغْنَا مَنْتَهِاهُ ،
عَرَفْنَا أَنَّ الْخَيْرَ هُوَ فِي مَطَاوِعَةِ إِرَادَتِكَ ،
وَفِي التَّعْرِي من الذَّاتِ الْمَنْفَصِلَةِ عَنْ ذَاتِكَ ،
وَأَنَّ الشَّرَّ هُوَ فِي مَقَاوِمَةِ إِرَادَتِكَ ،
وَفِي التَّمْسِكِ بِالذَّاتِ الْمَنْفَصِلَةِ عَنْ ذَاتِكَ .

وعندئذٍ نعود إِلَيْكَ
لنحيا بِكَ وحْدَكَ، ولنفْنِي فِيكَ.



هكذا ، يا ربّي ، يتراوغى لي طريقي منك
وطريقي إِلَيْكَ .

وأَنَا لست أَعْرُف
أَين أَصْبَحْتُ الْيَوْمَ مِنْ طَرِيقِي .
وأَعْرُف أَنِّي لَا أَزَالُ أَمْشِي .

وعلَى كَتْفِي صَلِيبِي ،
وأَنِّي سَأَظْلَلُ أَمْشِي
إِلَى أَنْ يَتَمَّ التَّلاقِ

بَيْنِي وَبَيْنِ رَسُولِكَ الْأَعْظَمْ .

فَإِنَّا وَإِيَاهُ عَلَىٰ مَوْعِدٍ .

وَهُوَ الَّذِي ضَرَبَ الْمَوْعِدَ ، لَا أَنَا .

وَهُوَ وَحْدَهُ يَعْرِفُ

مَتَىٰ ، وَأَيْنَ ، وَكَيْفَ يَتَمَّ الْلَّقَاءُ .

أَمَّا أَنَا فَأَجْهَلُ ذَلِكَ مُنْتَهَى الْجَهَلِ .

أَوَلَيْسَ مِنَ الْغَرَابَةِ بِمَكَانٍ

أَنْ يَقُومَ مَوْعِدٌ بَيْنَ اثْنَيْنِ

فَلَا يَعْرِفُ زَمَانَهُ وَمَكَانَهُ غَيْرُ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا ؟

وَلَكِنْ تَلِكَ هِيَ حَالِي مَعَ رَسُولِكَ .

وَرَسُولُكَ صَارَمُ لَا يَقْبِلُ أَيْ تَأْجِيلٍ

أَوْ أَيْ اُعْتَرَاضٍ .

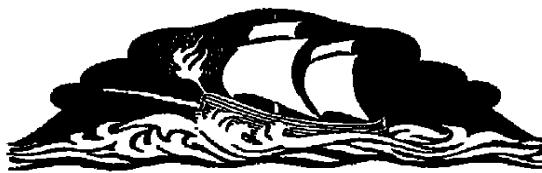
وَلَقَدْ عَلِمْتُنِي الْخَبْرَةُ أَنَّ رَسُولَكَ

لَا يَغْفِلُ طَرْفَةً عَيْنٍ عَنْ تَأْدِيَةِ رِسَالَتِهِ .

فَهُوَ لَا يَنْفَكُّ يَضْرِبُ الْمَوَاعِيدَ

لا لأنباء البشر وحسب ،
بل لكل حي وغير حي في الأرض
وفي فضائك الذي لا نعرف له بداية
أو نهاية .

فهذه كلّها على مواعيد متفاوتة مع رسولك .
بعضها يتلاقى وإياه في هذه الدقيقة
أو في التي تليها ،
وبعضها لا يتلاقى وإياه
إلا بعد ملايين السنين .
ولكنها جميعها ستتلاقى وإياه حتماً
في مكانٍ ما وزمانٍ ما .
ذلك الرسول هو
الموت .



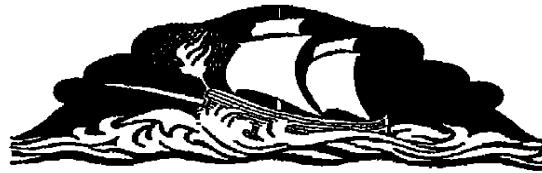
أَعْرَفُ ، يَا رَبِّي ، -
أَوْ أَظْنَنِي أَعْرَفُ -
أَنَّ ابْنَ الْإِنْسَانَ
الْوَاهِمُ أَنَّهُ يَمْلِكُ ذَاتًا غَيْرَ ذَاتِكَ ،
وَإِرَادَةً غَيْرَ إِرَادَتِكَ
يَنْبَغِي أَنْ يَمُوتَ -
يَنْبَغِي أَنْ يُصْلَبَ وَيَتَّالَّمَ وَيُدْفَنَ -
لِيَتَخَلَّصَ مِنْ وَهْمِهِ ،
وَيَنْهَضَ مِنْ قَبْرِهِ
وَهُوَ لَيْسُ فِيمَا بَعْدِ ابْنَ الْإِنْسَانَ
الْمَرْضُ لِلْوَلَادَةِ وَالْمَوْتِ ،
بَلْ ابْنُ اللَّهِ الَّذِي لَمْ يَوْلُدْ

فلا يمكن أن يموت .
أجل . إنني لا أعرف ذلك
أو أظنّ أنني أعرفه .
إلا أنني لا أعرف .
و كنت أود لو أعرف .
لماذا ، يا ربّي ،
يتَّسِّم ويُمُوت كلّ شيء
و كلّ حي
في عالمك الذي لا نعرف له بداية
أو نهاية ؟
إن يكن موت ابن الإنسان كفارة
عن وهمه الخاطئ
بأنه يملك إرادة غير إرادتك ،
وكياناً غير كيانتك ،
فعمّا يكفر الحَمَل المذبوح بسُكّين القصّاب ،

أَو المُزَّق بِأَنياب الذئب؟
وَمَنْذَا يُسْتَطِع أَنْ يَتَخَيَّل آلامه؟
وَعَمَّا ذَا يَكْفُر الذئب

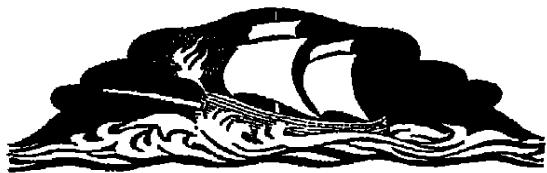
تَرْدِيه رَصَاصَة مِنْ بَنْدِقِيَّة صَاحِب الْحَمَل؟
أَو الْأَرْزَة العَتَيَّة تَقْدُّها صَاعِقَةُ
مِنْ أَعْلَى إِلَى أَسْفَل
فَتَحْرُق حَتَّى الجُذُور فِي التَّرَاب؟
أَو الصَّخْرَة الْصَّلِدة تَفْتَّهَا الْمَطَارُق
وَالْبَارُود وَالْدِينَامِيت؟
أَو الْكَوْكَب الْهَائِم فِي الْفَضَاء
يَنْشَطِر إِلَى كَواَكِب تمْضِي جَمِيعُهَا تَهِيم فِي الْفَضَاء؟
عَمَّا ذَا تَكْفُر سَائِر مَخْلُوقَاتِك
الَّتِي لَيْسَت عَلَى صُورَتِك وَمَثَالَك كَمَا هُوَ الْإِنْسَان؟
فَهَذِه جَمِيعُهَا -
أَجَل جَمِيعُهَا -

على موعد مع الموت ،
ومع كلّ ما يحمله الموت
من خصوص وآلام مبرّحة .
والألم لا يكون إلّا حيث تكون اللذة .
فعلى قدر ما تكون اللذة يكون الألم بفقدانها .
وأنت ، يا ربّي ، قد جعلت لذة البقاء
أعظم لذة
إذ فرشت الأرض والسماء
بعجائبك التي لا تُحصى ولا توصف ،
وأعطيت كلّ مخلوق
قدرة الاستمتاع بها على قدر طاقته .
وإذاك فلا عجب
أن يكره كلّ حيٌ في الأرض
رسولك الموت .



يبني الانسان بيته ليسكنه
فلا يلبث البيت أن يصبح بعضاً منه .
إذا احترق البيت أو انهدم
احترق أو انهدم شيء في نفس صاحبه .
فكيف بذلك البيت إذا كان هيكلًا عجيبة
كالجسد الذي هيأته ، يا ربى ، للانسان ؟
في ذلك الهيكل يحيا الانسان عمره -
طال أو قصر .
فيه ينام ويقوم .
فيه يأكل ويشرب .
فيه يحلم أحلامه العذاب وغير العذاب .

فيه يقيم ولائمه ومآتمه .
فيه تنقف وتعشّش أفكاره وهواجسه ،
ونياته وشهواته البيض والسود .
فيه يُضرم نيران حبه ونيران كرهه .
فيه يقدم قرابينه وفيه يرتكب الموبقات .
فيه ينعم بجمالات الفردوس
وفيه يُشوى بسعير جهنم .
فيه يرتفع إلى سائقك الأبهى
وفيه ينحدر إلى أظلم ظلمات العدم .
ثم يأتيه رسولك الموت
ليقول له بلهجة الأمر الذي لا مرد لأمره :
«أخرج من هذا الهيكل
 فهو ليس بعد اليوم لك !»



أَفَيُلَامُ الْإِنْسَانُ عِنْدَئِذٍ
إِذَا هُوَ هَتَّفَ إِلَيْكَ
كَمَا هَتَّفَ ابْنُ مَرِيمَ وَابْنَكَ قَبْيلَ آلامَهُ :
«أَبْتَاهُ ! إِذَا أَمْكَنْتَ فَلْتَعْبِرْ عَنِّي هَذِهِ الْكَأسَ !» ؟
هَذَا الْهِيْكَلُ الرَّائِعُ الَّذِي هِيَّا تَهْ لِي
لَا مِنْ خَشْبٍ وَحْجَرٍ وَحْدِيدٍ ،
بَلْ مِنْ لَحْمٍ وَعَظْمٍ وَدَمٍ ،
وَالَّذِي جَعَلَنِي قِيَّمًا عَلَيْهِ
وَكَاهْنًا لِذَبْحِهِ ،
كَيْفَ لِي ، يَا رَبِّي ، أَنْ أَهْجُرْهُ
عَارِفًا حَقًّا الْعِرْفَةَ أَنَّهُ سَيَتَهَّمْ
وَيَغْدُو وَلِيْمَةً لِلْبَلْيِ ؟

كيف لي أن أتخيل عيني
وقد هرب منها النور
فباتت لا تحرّك جفناً ولا تهشّ لمنظر؟

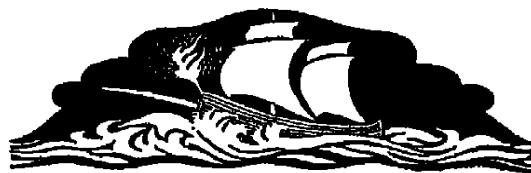
كيف لي أن أتخيل يدي
التي تخطّطُ الآن ما تخطّطَ
وقد هجرّتها الحرارة والحركة
فأمسّت وكأنّها الحطبة؟

كيف لي أن أصغي باذن خيالي
إلى قلبي فلا أسمع له نبضاً،
ولى رئتيّ فلا أسمع لهما نفساً؟

كيف لي أن أنظر بعين خيالي
إلى رجليّ
فإذا بهما أجمد من الجماد؟

كيف لي أن أفگر في دماغي العجيب
الذي منه تصدر الأوامر إلى كلّ قطرة من دمي،

: وكل نسمة في صدري ،
 وكل خلية في جسدي ،
 والذي فيه أخزن جميع أحداث حياتي ، -
 كيف لي أن أفگر في ذلك الدماغ
 وقد بات عجينة هشة
 لا خير فيها إلا للددود ؟
 أجل . كيف لي أن أفگر في ذلك كله
 من غير أن أهتز لوعة وحرقة وأسى
 حتى أعمق أعماق نفسي ؟

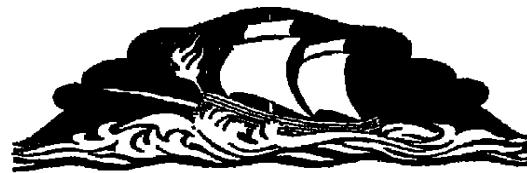


إي . رهيب هو الموت ، يا ربّي .

رهيبٌ . رهيبٌ . رهيبٌ .
وأرهبه على الاطلاق موت الأطفال ،
وموت المرضعات ،
ثم ذلك الموت الذي يسببه الناس للناس
في ساحر الحروب
حيث تتمزق أجسادهم بالقنابل ،
أو تحرق بالنار ،
أو تغدو طعاماً للأسماك في قاع البحار .
خيال الموت ورهة الموت
ما أتفه همومي وهموم الناس ،
ومشكلاتي ومشكلاتهم ،
وأفراحني وأتراحي ،
وأفراحهم وأتراحهم !
إنها لآتفه من عصافة البيدر .
وما أ وهى الحصون التي أحصن بها ويتحصنون !

إِنَّهَا لَأُوهِيٌّ مِّنْ نَسِيجِ الْعَنْكِبُوتِ .
فِي الْأَرْضِ آثَارٌ كَثِيرَةٌ يَباهِي بِهَا النَّاسُ ،
وَيَحْفَظُونَ عَلَيْهَا مَحَافِظَتِهِمْ عَلَى أَحَدَاقِهِمْ .
إِنَّهَا مِنْ مُخْلِفَاتِ أَسْلَافِهِمْ
الَّذِينَ بَلَغُوا مَرْتَبَةَ رَفِيعَةٍ فِي الْفَنِّ الْمَعْمَارِيِّ
وَغَيْرِهِ مِنَ الْفَنَّوْنَ .
وَلَكِنَّ الْمَوْتَ يَفْتَّهَا يَوْمًا بَعْدَ يَوْمٍ
بِسَعَاوِلِهِ وَمَطَارِقِهِ ، وَمَنَاشِيرِهِ وَأَزَامِيلِهِ .
وَسِيَّاتِي يَوْمٌ تَزُولُ فِيهِ تِلْكَ الْآثَارُ مِنَ الْوُجُودِ .
بَلْ سِيَّاتِي يَوْمٌ
تَبَدَّلُ فِيهِ الْأَرْضُ غَيْرُ الْأَرْضِ ،
وَالنَّجُومُ غَيْرُ النَّجُومِ .
حَتَّى الشَّمْسُ لَنْ تَبْقَى شَمْسًا إِلَى الأَبَدِ .
لَا . لَنْ يَبْقَى شَيْءٌ فِي الْفَضَاءِ
لَا تَمْسَهُ يَدُ الْمَوْتَ فَتَحُولُهُ شَيْئًا آخَرَ .

ويبقى فضاؤك اللامتناهي
 لا يتقلّص ولا يتمدّد ،
 ولا يزيد أو ينقص ،
 ولا يتحول أو يتبدل .
 وتبقى أنت ، يا ربِّي ، تملأُ الفضاء .
 فما هو نصيبي من فضائلك ،
 وأنا طفلك ،
 وعلى صورتك ومثالك ؟



من الفضاء جاءَ النَّفَس
 الذي حرك مفاصلِي

حتى قبل أن خرجت من بطن أمي .
وإلى الفضاء سيعود نفسي
ساعة يدركني الموت ،
فتبهرب الحرارة والحركة من جسمي
ويسمى جماداً كباقي الجماد .
يمر في خاطري ،
كما يمر البرق في السحاب ،
أنَّ الفضاء بالنسبة إلى الجسد الكوني
هو كالدماغ بالنسبة إلى الجسد الإنساني .
فمثلما يحفظ الدماغ كل شاردة وواردة
من حياة صاحبه ،
دون أن يختلط بعضها ببعض ،
أو يزحم بعضها ببعض ،
أو يمحو بعضها ببعض ،
كذلك يحفظ الفضاء

كُلّ ما كان في الكون
منذ أن كان الكون ،
فلا تضيع منه نقطة
ولا يُحذف منه حرف .

ونحن مهما أَوغلنا
في فنون القراءة والكتابة ،
وفي تقضي مظاهر الأشياء ومسالكها ،
سنبقى أميين ،
وسنبقى أطفالاً طائشين ، جاهلين
إلى أن يصبح في إمكاننا
أن نقرأ ما في أدمغتنا ودماغ الكون ،
 وأن نفهم ما نقرأ .

ويوم يتم لنا ذلك -
وهو لن يتم في عمر واحد
بل في سلسلة طويلة من الأعمار -

سبارك الموت ،
وسندرك أنه كان انتقالاً بنا
من فصل إلى فصل
في كتاب كونك العجيب ، الامتناهي .
وإلى أن تكون لي المقدرة
على قراءة ما في ذاكرتي وذاكرة الكون
أهّلني ، يا ربّي ، أن أتقبل الموت
رسولاً منك لا يحمل لي إلا الخير ،
ومعلماً يتدرج بي من إرادتي العميماء
إلى إرادتك البصيرة ،
ومن ذاتي التي تموت
إلى ذاتك التي لا تموت .

ثم أهّلني
أن لا أسجل بعد اليوم
في كتاب ذاكرتي

ما لو قرأته وقرأه الناس ،
ولو بعد ألف عام ،
ندمت عليه وخجلت به
أمام نفسي وأمام الناس .
فكان لي من ندمي ومن خجلي
نار تشويني فلا تترمّد ،
ولا أترمّد .
ولكم كنت أَوَّد ،
لو كان في مستطاعي ،
أن أمحو من سجل ذاكرتي وذاكرة الكون
آثار الكثير مما قلته وفعلته ،
ونويته واستهيه ،
وفكرت فيه وحلمت به ،
وفرحت به أو بكيت عليه .
ولكن «ما كُتب قد كُتب»

ولا سبيل لمحوه .

إنما هناك سبيل لتعقيمه
أو لتعطيل مفعوله

بكتابتي ما هو عكسه بالتمام .
كان أكتب الغفران بدل الحقد ،
والعفة بدل التهتك ،
والمحبة بدل الكراهة .

ويما لغبطة الذين طفت المحبة في ذاكرتهم
على كل شيء عداها .

أولئك هم الذين قطعوا
طريق الخير والشر حتى نهايته
فوجدوا ذاتهم الحقة ،
وانفتحت لهم أبواب فردوسهم المفقود
فدخلوه ليقيموا فيه
خارج نطاق الزمان والمكان ،

وأبعد من متناول الموت .

أما الذين هم دونهم نصيباً

من ملکوت المحبة

فمقضيٌّ عليهم ،

عمرًا بعد عمر ،

أن يتناولوا من ذاكرتهم

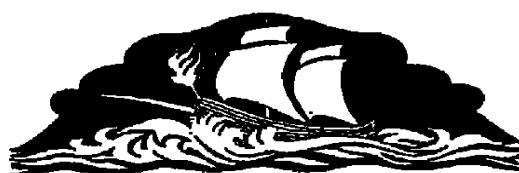
وذكرة الكون

ثمار ما ألقوا فيهما من بذور الخير والشر .

ذلك هو ثوابهم .

وذلك هو عقابهم .

وتلك هي دينونتهم .



ثُمَّة بارقةٌ أُخْرَى تمرُّ في خاطري ، يا ربِّي .
وهي أَنَّ ما يحتويه الكشكول العجيب
الذِي ضمن ججمحيَ
لِيس مادَّة تُحسَّ أو تُقاس
أَو توزن في موازين .
إِنَّه لَمَجموَّعة هائلة من الصُّور الذهنية
لكلِّ ما خبرته في حياتي .

ما من شيءٍ أَبصَرْتُه على الأَرض أو في السَّماء ،
ما من شيءٍ لمسْتُه ، أو تذوقْتُه ، أو شمْتُه ،
ما من صوت سمعْتُه ؟
ما من كلمة نطقْتُ بها أو كتبْتُها ؟
ما من حركة عفوية أو غير عفوية قمت بها ؟
ما من حُلم حلمْتُه وأَمَلَّتُه ؟
ما من فكرة ، أو نية ، أو رغبة ،

أو عاطفة مررت في خاطري
إلا كانت لها صورة في دماغي .

ويلوح لي ، يا ربّي ،
أنَّ الدِّمَاغَ الَّذِي ارْتَسَمَ فِيهِ تِلْكَ الصُّورَ
بِطَرِيقَةٍ عَجَابَيَّةٍ تَفُوقُ إِدْرَاكِي وَإِدْرَاكَ أَيِّ إِنْسَانٍ
هُوَ الَّذِي سَيَبْلِي لَأَنَّهُ مِنَ الْمَادَّةِ
وَإِلَى الْمَادَّةِ يَعُودُ .

أَمَّا الصُّورُ ذَاتُهَا فَلَنْ تَبْلِي
لَا نَهَا لِيْسَ مِنَ الْمَادَّةِ .

ثُمَّ يَلْوَحُ لِي أَنَّ تِلْكَ الصُّورَ مُجَمَّعَةً
تَكُونُ نَوَّاهُ الذَّاتِ الْمُتَطَوَّرَةِ الَّتِي أَدْعُوهَا
«أَنَا»

وَالَّتِي تَمْيِّزُنِي مِنْ كُلِّ إِنْسَانٍ آخَرَ فِي الْأَرْضِ .
وَهَذِهِ الذَّاتُ سَتَبْقِي تَطَوُّرًا عَلَى مَدِي الزَّمَانِ
إِلَى أَنْ تُدْرِكَ ذَاتَكَ

فتُفْنِي فِيهَا

كَمَا تُفْنِي حَبَّةُ الْبَرَدِ فِي الْجَدُولِ ،

وَالْجَدُولُ فِي النَّهَرِ ،

وَالنَّهَرُ فِي الْمَحِيطِ .

وَفَنَاؤُهَا إِذْ ذَاكَ لَيْسَ اضْمَحْلَالًا ،

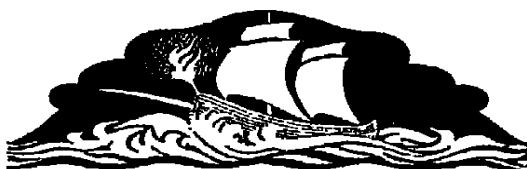
أَوْ تَلَاشِيًّا ،

أَوْ انتِقَالًا مِنَ الْوُجُودِ إِلَى الْلَاوُجُودِ .

إِنَّهُ ، عَلَى العَكْسِ مِنْ ذَلِكَ ،

انتِقَالٌ مِنَ الْوُجُودِ الْمُتَطَوِّرِ ، المُحَدُودِ ،

إِلَى الْوُجُودِ السَّرْمَدِيِّ الَّذِي بِغَيْرِ حَدُودٍ .



ذلك ما يتجلّ لي ، يا ربّي .
ساعة أُناجيك ،
وساعة أُصغي إلّيك .
في مثل تلك الساعة —
وقد تكون رفة جفن لا أكثر —
تعطل عقارب الزمان ،
وتكتف الأرض والأفلاك عن الدوران ،
ويغفو العقل البهلوان ،
ويسقط عن كتفي صليبي ،
وعن عنقي نيري ،
وتخرس السنة شهواتي ،
ويخفّ جسدي ويشفّ
حتى لآغدو وكأنني روح ولا جسد .
ولكم تمنيت لتلك الحالة لو أنها لا تحول .
ولكن هيهات !

فاليهكل الذي أعيش فيه ،
والعالم الذي يحتوي ذلك الهيكل ،
يأبيان إلّا أن يشوش على
لذّة الاتصال بك .

فلا أكاد أنصرف إليك
حتى أنصرف عنك .

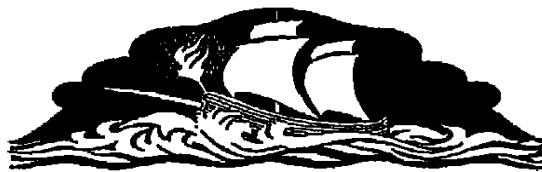
كم مرّة حاولت أن أمسح عيني
من مشاهد الأرض والسماء -
جميلها وقبيحها -

كيمما أشهد بهائك وحدك ،
فما لبستْ عيني

أن عادت ترشف من مفاتن الأرض والسماء
فلا ترتوي ،
أو تدمع لما في الأرض وأهل الأرض
من بشاعرات

حتى ليكاد خزان دمعها أن ينضب !
كم مرة أفرغت أذني
من أصوات الأرض والسماء -
ما كان منها في مثل نعومة شدو الهزار
أو في مثل خشونة نهيق الحمار -
كيملا لا تسمع غير صوتك ،
فما عتمت الأذن أن عادت فامتلأت
بأصوات تنسرح لها النفس غاية الانسراح
وأصوات تتقدّر منها منتهى التقدّر !
كم مرة غربلت فكري من كل فكرة
خلا فكرة الاستسلام لك ،
وصفيت قلبي من كل شهوة
خلا شهوة الاتّحاد بك ،
وإذا بفكري يعود فيفتح بابه على مصراعيه
لأفكار غير فكرة الاستسلام لك ،

وإذا بقلبي يعود فيطفح بشهوات كثيرة
غير شهوة الاتحاد بك.



ها هي طفلة في ربيعها الرابع تمتسي دراجة حمراء
ذات ثلاثة دواليب
وتدور بها من غرفة إلى أخرى في البيت ،
وبسرعة فائقة ،
دون أن ترطم بباب أو بكرسي .
وعندما تبلغ المكان الذي أنا فيه
وتراني منكباً على الكتابة
ترجّل عن دراجتها ، وتقرب مني ،

وتحسّر على الجلوس في حضني .
ولا يجديني معها اعتذاري أَنْي «مشغول» -
فالذي أَكتبه لا يعني لها شيئاً -
وقد لا يعني شيئاً لآلاف الذين هم أَكبر منها بكثير .
وتنتهي الجولة بـأن تجلس الصغيرة في حضني
وتمضي تمطرني بوابل من الأسئلة :
«جِدُّو أَيْشْ تكتب؟»
جِدُّو لَيْشْ تكتب؟
جِدُّو بـتتحبّبي؟»
وعندما أُجيبها بالإيجاب على سؤالها الآخر
تطوّقني بذراعيها
وتطبع أكثر من قبلة على وجهي وهي تردد :
«أَنا بـحبّ جِدُّو قدّ البحـر
وقدّ السـما والأـرض». .

فيكاد قلبي يقفز من بين ضلوعي

وأَتَمْنَى لو كَانَ لِي أَلْفُ الطَّفْلَةِ بِشَغَافِهِ ،
وَأَنْ أَدْرِأَ عَنْهَا كُلَّ سُوءٍ ،
وَأَنْ أَخْتَرِقَ حُجْبَ الْمَاضِيِّ وَالْمُسْتَقْبِلِ
فَأَعْرِفَ مِنْ أَينَ جَاءَتْ ،
وَإِلَى أَينَ تَمْضِي ،

وَمَا هِيَ الدَّرْبُ الْمُفْرُوضُ عَلَيْهَا قَطْعَهَا فِي دُنْيَاها ،
وَبِمَاذَا فَرَشَتْهَا يَدُ الْقَدْرِ .

وَتَسْتَأْسِسُ الطَّفْلَةُ فِي حُضْنِي
فَلَا تَلْبِثُ أَنْ تَمْدَدِّعَ يَدَهَا إِلَى قَلْمَيِّي ،
ثُمَّ إِلَى الْأَوْرَاقِ التِّي أَمَامِي ،
فَأَزْجِرُهَا .

وَكَانَ حَرِيًّا بِي أَنْ أَزْجِرَ نَفْسِي .
فَمَا أَدْرَانِي أَنْهَا لَيْسَ أَحَقُّ مِنِّي
بِقَلْمَيِّي وَبِأَوْرَاقِي ؟
وَنَحْنُ كَذَلِكَ إِذَا بَأْمَ الطَّفْلَةَ تَطْلَّ

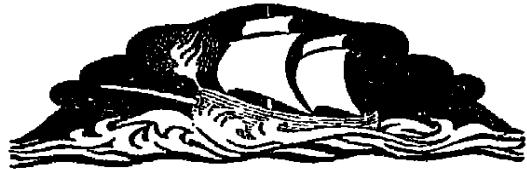
لتذكّري بأنّ وقت الأكل قد حان :
«أنكولي ! مُشْ ناوي تتغدى اليوم ؟»
وأمّ الطفلة هي ميّ - إبنة أخي نجيب -
التي ما ببرحت تسهر على راحتى الجسدية والنفسيّة
منذ ثلاثين سنة .
وكم أنا مدین لذوقها الرفيع ،
وإحساسها المرهف ،
ودرايتها في تدبیر المنزل ،
وتدبیر شؤونها مع الناس ،
وحسن استقباها للضييف ،
وتفانيها في محبّة الذين يعرفون لمحبتها قيمة !
و«أنكولي» كلمة نحتها ميّ من كلمة
«أنكيل» الانكليزية التي تعني «العم».
وذلك زيادة في التحبّب .
وهناك والد ميّ ، وشقيقها يوسف ونديم

وصغارهما وزوجتاها ،
وجمهور غفير من الأقرباء والأصدقاء والقراء والمحبين .
هؤلاء جميعهم ،

مع كلّ ما انفتحت عليه عيناي من مفاتن الأرض والسماء
وكلّ ما مسّ قلبي من إنسانية في سلوك الناس ،
هم الوجه المشرق من حياتي الآن و herein ،
والوجه الذي يغريني التطلع أبداً إليه ،
والذي يشدّني إلى الأرض بأمراس من حديد .
ولذلك يشقّ عليّ أن يأتي يوم
يغيب فيه عنّي
وأغيب عنه .

بأنسى أنَّ الأرض وكلّ ما عليها إلى الزوال ،
وأنني أحمل صورة ذلك الوجه في ذاتي
أينما كنت وكيفما تحولت ،
وأنَّ وجهك وحدك هو وجه الحياة

التي لا تحول ولا تزول .



أَمَا الوجه المظلم من حياتي على الأرض
فَلِنَّي أَبْصُر ملامحَ مِنْهُ فِي كُلِّ مَا يَجْرِي حَوْلِيْ .
أَبْصُرُهَا فِي الْكَثِيرِ مِنْ مَظَاهِرِ الطَّبِيعَةِ ؛
فِي الْزَّلَازِلِ وَالْبَرَاكِينِ ،
فِي الصَّوَاعِقِ وَالْأَعْاصِيرِ ،
فِي الْقَيْظِ يَشْوِي الْأَرْضَ وَنَبَاتَهَا
وَحِيوانَهَا وَإِنْسَانَهَا بِالْعَطْشِ ،
وَفِي السَّيُولِ الَّتِي تَبْلُغُ حَدَّ الطَّوفَانِ
فَتُغْرِقُ الْمَسَاكِنَ وَالسَّكَانَ ،

وتقلى الزرع والضرع ،
وتترك الأرض خراباً يباباً .

وابصرها في صراع المخلوقات بعضها مع بعض ،
ذلك الصراع العنيف ، الرهيب ،
صراع البقاء والفناء ،
الذي لا تخلو منه غابة أو فلبة ،
ولا جبل أو واد ،
ولا جدول أو بحر ،
والذي لا هدنة فيه ولا هوادة
لا في الليل ولا في النهار ،
ولا في أيّ فصل من الفصول .

وابصرها ، أكثر ما أبصرها ،
في صراع الناس مع الطبيعة
ومع بعضهم بعض .

يشكون الناس من أنَّ فوق إرادتهم إرادة ،

و فوق سلطانهم سلطاناً ،
ويشوقهم أن تكون إرادتهم هي العليا ،
 وأن يكون سلطانهم هو المُطاع .
ولذلك يلتجأون إلى كل ما يملكون من فطنة و ذكاء ،
وحيلة ودهاء ،
ليفرضوا إرادتهم وسلطانهم
على جميع المخلوقات في الأرض
التي هي أقلّ منهم حيلة ودهاء ،
وفطنة وذكاء .
وذلك أبداً هو شأن الضعيف .
 فهو يقتصر لضعفه تجاه من هم أقوى منه
بالتنكيل بمن هم أضعف منه .
هكذا ذلل الإنسان لخدمته شتى البهائم والطيور :
ذلل الفيل والجمل ، والثور والحصان ،
والبغل والحمار ، والكبش والتيس ،

والأوزة والبطة ،

والدجاجة والحمامة ، وغيرها وغيرها .

والتي لم يستطع تذليلها من المخلوقات
راح يتعقبها بشتى الاحابيل أو بالرصاص .

فما نجا من شرّه سكان الغاب

كالأسد والنمر ، ووحيد القرن والخنزير البري ،
والوعول والأيل ، والأفاعي على أنواعها .

ولا سكان الفلوات كالنعامنة والغزال ،

ولا سكان البحار من الحوت بما دون .

ولا مجذحات الجوّ من النسر وحتى أصغر عصفور .

ولا نجت من أذاه شتى الزحافات والحشرات .

فمن هذه ما يزعجه في راحته الجسدية ،
ومنها ما يؤذيه في نتاج أرضه .

لذلك ابتدع لها أصنافاً وأصنافاً من السموم
التي تبيدها وتبيد معها الكثير من الحشرات الأخرى ،

ومن الأعشاب والطيور
التي هي عون للإنسان في حياته .
وليس يخامر الإنسان أئمّ الشك
في أنَّ من حقِّه المطلق
أن يعامل المخلوقات التي دونه مثل تلك المعاملة ،
فُيُرْهق منها ما يرهق بالعمل الشاقّ ،
ويذبح منها ما يذبح لقيمات بلحمة
وينتفع بجلده وعظامه ،
ويقتل منها ما يقتل ،
باسم العِلم أو باسم «السبورت» ،
ويصطاد منها ما يصطاد حيًّا
ليحبسه في أقفاص من حديد ،
أو في زرائب ضيقة مصوّنة ،
كيمَا يُتاح للناس أن يبصروه .
وقطًّا لا يخطر للإنسان في بال

أَنَّ لِتُلْكَ الْمَخْلوقَاتِ نَصِيبًا فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ
لَا يَقُلُّ عَنْ نَصِيبِهِ ،
وَأَنَّهَا تُحِبُّ الْبَقَاءَ مُثْلِمًا يُحِبُّ الْبَقَاءَ ،
وَأَنَّ نَصِيبَهَا مِنَ الْبَقَاءِ
لَيْسَ هَبَةً مِنْهُ ، أَوْ عَمَلاً مِنْ أَعْمَالِ يَدِيهِ
يَتَصَرَّفُ بِهِ عَلَى هَوَاهُ ،
وَأَنَّهُ يَحْاسِبُ عَنْ تَصْرِفِهِ حِسَاباً دَقِيقَاً ، عَسِيرَاً ،
وَأَنَّ لَا مُهَرِّبٌ لَهُ مِنْ ذَلِكَ الْحِسَابِ .
فَوَاعْجِبَا لِعَبْدِ يَشْكُو ظُلْمَ سَيِّدِهِ
وَإِذَا بِهِ عَنْوَانَ الظُّلْمِ وَالْجُورِ وَالْتَّعْسُفِ
حَالَمَا تُتَاحُ لَهُ الْفَرَصَةُ
أَنَّ يَكُونَ سَيِّدًا
عَلَى شَيْءٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ ،
أَوْ إِنْسَانًا مِنَ النَّاسِ ،
أَوْ عَلَى مَجْمُوعَةٍ مِنَ الْأَشْيَاءِ وَالنَّاسِ .

كم من حاكمٍ أَفقر مَحْكُومِيهِ ،
وأَذْلَّهُمْ وظَلَمُهُمْ أَفْطَعَ الظُّلْمَ
بِاسْمِ السُّلْطَانِ الْمُعْطَى لَهُ عَلَيْهِمْ
مِنْ قِبَلِ «القانون» ،
أَوْ مِنْ قِبَلِ التَّقَالِيدِ الْدِينِيَّةِ وَالاجْتِمَاعِيَّةِ !

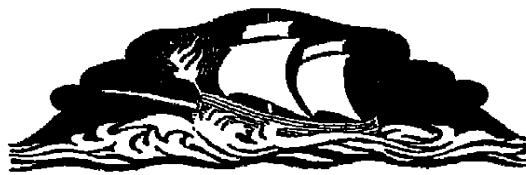
كم من زوجٍ جَعَلَ مِنْ زَوْجِهِ
مَا يُشَبِّهُ الْمَسْحَةَ أَوْ الْخَرْقَةَ الْبَالِيَّةَ
لَأَنَّ الْقَانُونَ جَعَلَهُ قِيمَّاً عَلَيْهَا !

كم من مَعْلُومٍ «أَدَبٌ» تَلَامِيذهُ بِسُلْطَةِ الْقَانُونِ
وَكَانَ أَحَقُّهُمْ بِالتَّأْدِيبِ !

كم من صاحبٍ عَمِلَ أَجَاعَ عَمَّالَهُ
لَأَنَّهُ يَمْلِكُ الْمَالَ وَالسُّلْطَانَ وَهُمْ لَا يَمْلِكُونَ ،
وَلَأَنَّ الْقَانُونَ يَحْمِيهِ وَيَحْمِي مَالَهُ وَسُلْطَانَهُ !

كم من رَاعِي دِينِي أَجَاعَ قَطْبِيعَهُ إِلَى نِعْمَةِ رَبِّهِ
وَأَكْرَهَهُ عَلَى السَّيْرِ وَرَاءَهُ

بِاسْمِ السُّلْطَةِ الْمُعْطَاةِ لَهُ «مِنْ فَوْقٍ» !
كَمْ مِنْ قَائِدٍ حَرَبَّ
زَجَّ بِجَحَافِلِهِ فِي أَتَارِينَ مِنَ النَّارِ
لَأَنَّ الْقَانُونَ يَخُولُهُ أَنْ يَتَصَرَّفَ بِجَحَافِلِهِ
حَسْبَمَا تَقتَضِيهِ «حُكْمَتِهِ» !
وَمَا هُوَ الْقَانُونُ ؟
طَوقَ مِنَ الْحَدِيدِ يَصْنَعُهُ النَّاسُ
لِيَطُوقُوا بِهِ رُقَابَ بَعْضِهِمْ الْبَعْضُ
بِصْرَفِ النَّظَرِ عَنِ الْفَوَارِقِ الْعَظِيمَةِ
بَيْنَ رَقَبَةِ وَآخِرِيِّ .
فَمِثْلَمَا الْفَرْقُ شَاسِعٌ
بَيْنَ رَقَبَةِ النَّمْلَةِ وَرَقَبَةِ الْفَيْلِ
كَذَلِكَ شَاسِعٌ هُوَ الْفَرْقُ بَيْنَ غَيْرِيِّ وَنَبِيِّ .
وَمِنِ الْإِثْمِ أَنْ يُطُوقَ الْاثْنَانِ بِطَوقٍ وَاحِدٍ .



إِي . ظَالِمٌ أَنَا ، يَا رَبِّي ،
وَظَلْمِي أَقْبَحُ الظُّلْمِ .

إِنَّهُ ظَلْمُ السَّاجِنِينَ وَقَدْ بَاتَ سَجَانًا .

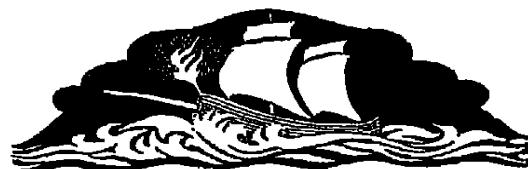
أَوْ هُوَ ظَلْمُ الْعَبْدِ
وَقَدْ أُسْنِدَتِ إِلَيْهِ وظيفةِ الْمُشَتَّرِعِ
وَالْمُنْفَذُ لِلشَّرِيعَةِ .

وَظَلْمِي هَذَا
هُوَ الَّذِي يَمْسَحُ وَجْهَ حَيَاتِي عَلَى الْأَرْضِ
بِالكَثِيرِ مِنَ الظَّلَامِ .

وَهُنَاكَ كَهْوَفٌ أُخْرَى وَأُخْرَى
تَتَسَرَّبُ مِنْهَا الظُّلْمَةُ إِلَيْ

فتسدل على وجه حياتي
قناعاً من الحزن والكآبة والأسى .
وذلك القناع يحجب عنّي
سناء وجهك الذي ما شوّهته ظلمة قطّ .
من تلك الكهوف آلاف المستشفيات والمصحّات
وببيوت المجانين المنتشرة في الأرض
حيث الملايين من الناس
يستسلمون لعقاقير الطبيب أو لمبضع الجراح
بغية التخلص من أوجاعهم المبرحة ،
وحيث الرحمة تباع بالثقال ،
وبالفلس والدينار ،
وحيث يستميت الناس ،
كبيرهم وصغيرهم ،
وغنيّهم وفقيرهم
في سبيل تمديد آجالهم على الأرض

ولو لعامٍ ، أو لشهر ، أو ل يوم ،
غير آبهين بما يحمله لهم ذلك اليوم ،
أو الشهر ، أو العام من أوجاع جديدة ،
وغير حاسبين أي حساب
للمواعيد التي بينهم
وبين رسولك الموت .

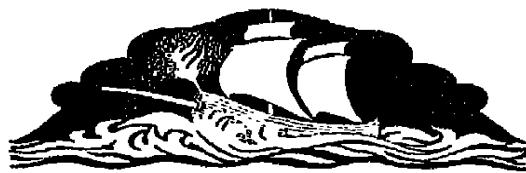


وماذا أقول في السجون والمعتقلات
السياسية والعسكرية ،
وفي معسكرات اللاجئين
المقتَلَعين بجذورهم من دورهم وحقوقهم ؟

إِنَّهَا لِشَهَادَةٍ صَارِخَةٍ سُودَاءُ ،
يُؤَدِّيْهَا الْأَنْسَانُ ضَدَّ نَفْسِهِ ،
وَضَدَّ النُّظُمِ وَالْمَجَامِعَاتِ الَّتِي خَلَقَهَا
لِيُعِيشَ مَعَهَا فِي طَمَانِيَّةٍ وَسَلَامٍ
فَإِذَا بَهُ أَبْعَدَ مَا يَكُونُ
عَنِ الطَّمَانِيَّةِ وَالسَّلَامِ .

إِنَّهَا لِكَهْوَفٍ
فِيهَا مِنَ الظُّلْمَةِ طَبَقَاتٌ فَوْقَ طَبَقَاتٍ .
فَلَا عَجَبٌ
أَنْ يَتَسَرَّبَ شَيْءٌ مِنْ ظَلَامِهَا إِلَى تَهْبِيَّ
مَا دُمْتُ وَاحِدًا مِنَ النَّاسِ .

وَلَا عَجَبٌ
أَنْ تَؤَنِّبَنِي نَفْسِي أَعْنَفَ التَّأْنِيبِ
كُلَّمَا سَمِحْتُ لَذَلِكَ الظَّلَامَ
أَنْ يَقُومَ حَاجِزًا بَيْنِي وَبَيْنَ نُورَكَ السَّرْمَدِيِّ .



ثمّ ماذا أقول في تلك الكهوف الرهيبة
التي يدعونها وزارات الحرب أو وزارات الدفاع ،
والتي لا تخلو منها أمّة في الأرض ؟
بل هي تكاد تكون الوزارة الأهمّ
في جهاز كلّ دولة أو دويلة
من دول العالم ودولياته .

تلك الوزارات
هي التي تستأثر بخير الأدمغة في بلادها ،
أو الأدمغة التي تتبعها من خارج بلادها
فتجنّدّها لا لتكثير خيرات الأرض

وتوزيعها بالقسط على أبناء الأرض ،
ولا لتحويل الصحاري إلى جنات غنٌ ،
أو لتفريج كربة الإنسان أينما كان
ومن أينما جنس أو لون كان ،
بل لتنسبط الأسلحة الجهنمية
التي من شأنها أن تحرق الأخضر واليابس
في الأرض ،
وأن تحول عمارها خراباً ،
وأن تُزهق أرواح الملايين
في مثل رفة الجفن ،
وأن تجعل من المرضع والرضيع ،
ومن العاشق والمشوق ،
ومن المؤمن والملحد وكل أصناف البشر
طعاماً لذوات الظفر والناب ، والمخلب والمنسر ،
أو سماداً للأرض .

أَوْ رماداً تذروه الرياح .
وهذه الأسلحة كلما زاد فتكها
زادت قيمتها في حساب وزارة الدفاع .
كالقنابل الذرية والهيدروجينية ،
والقنابل الجرثومية ،
والقنابل المحسنة بسموم أشدّ فتكاً من الجراثيم .
لذلك تتسابق الدول الغنية
في بناء المعامل لها ، وتجهيزها بأحدث الأجهزة ،
وتشغيل الملايين من الأيدي
في تحريك ماكيناتها ،
أَوْ في استخراج المواد الضرورية لها
من بطن الأرض أَوْ من سطحها .
أمّا الدول الفقيرة
فتتسابق إلى شراء ما تستطيع شراءه من الأسلحة
بالمليارات تُرهق به كواهل بنائها

وتحرمهم الكثير من مقومات الحياة .
ولو أنَّ عمل وزارة الحربية
انتهى عند هذا الحد
ل كانت المصيبة نصف مصيبة .
ولكنَّ وزارة الحربية تُعنى فوق ذلك
بتتجنيد الجيوش وتتدريبها على استعمال ذلك السلاح .
والجيوش تُجند في الغالب من الشبان -
وأحياناً من الشابات كذلك -
أي من خيرة السكان وأوفرهم نشاطاً
وأجدرهم بحياة كلّها أمل وفرح ،
 وكلّها إيمان بحاضرٍ فاضل ومستقبلٍ أفضل .
وإذا تخلَّف أحدُهم عن إداء «واجبه المقدَّس» ،
أو هرب ، بعد تجنيدِه ، من خدمة «العلم والوطن»
عُدَّ خائناً زنيماً ، مجرماً رعديداً .
فُرُجَ في ظلمات السجن

وعوقب أَفْظَعُ العَقَابِ .
وَذَلِكَ يَعْنِي ، يَا رَبِّي ،
أَنَّ مَنْ يُقْدِسُ نَسْمَةَ الْحَيَاةِ — حَيَاةَكَ ،
وَيَأْبَى أَنْ يَجْعَلَهَا سَلْعَةً فِي أَيْدِي تَجَارِ الْمَوْتِ ،
وَأَنْ يَلْوِثَهَا بِدَمَاءِ الْأَبْرِيَاءِ
يُعْدَّ مَارِقاً مِنَ الْحَيَاةِ
وَعَدُواً لِـ«النَّظَامِ» وَلِلنَّاسِ «الشَّرَفاءِ» .
فِي الْأَرْضِ الْيَوْمِ مَلَائِكَةُ الْمَجَنَّدِينَ .
مِنْ كُلِّ جَنْسٍ وَلَوْنٍ ، وَدِينٍ وَلِسَانٍ .
وَهُؤُلَاءِ كُلُّهُمْ تَحرِّكُهُمْ أَيْدِيهِ خَفِيَّةٌ يَجْهَلُونَهَا
وَلَا تَجْهَلُهَا وَزَارَاتُ الْحَرْبِ .
وَلَيْسَ عَلَيْهِمْ إِلَّا الطَّاعَةُ الْعُمَيَاءُ .
فَكَانُوكُمْ وَحْجَارَةُ الشَّطَرْنجِ سَوَاءً .
وَيَا لَهَوْلِ التَّمْزُّقِ الْجَسَدَانِيِّ وَالنَّفْسَانِيِّ
الَّذِي تَنْطُويُ عَلَيْهِ تَلْكَ الطَّاعَةُ الْعُمَيَاءُ !

فكيف بالموت الزؤام؟!
والجند لا يحرثون ويزرعون ويحصدون ،
ولا يبنون المدن والمعاهد والمعابد ،
ولكنهم من تعب الفلاح والعامل والتاجر
وغيرهم ، وغيرهم ،
يأكلون ويشربون ويكتسون ويتسليون ،
وعلى فنون التقتيل والتدمير يتدرّبون .
كل ذلك وزارة الحرب وأبوااقها
لا تخفل لحظة
عن زرع أكبر خدعة في نفوسهم وأفكارهم ،
وهي أن عملهم هو أشرف الأعمال ،
 وأن رسالتهم هي أبل الرسالات .
فهم يقتلون ويُقتلون
لا حباً بالقتل والتدمير ،
بل ذوداً عن حياض «الوطن المقدس» .

ودفاعاً عن «الحرية» و«الكرامة».

ولو أنّ ما تنفقه وزارات الحرب

في طول الأرض وعرضها من جهد ومال

أنفق كلّه - أو جلّه -

على محو الحدود والسدود بين الناس .

وعلى زرع شيءٍ من بذور المحبة في قلوبهم .

وشيءٍ من بذور التفاهم في أفكارهم .

وشيءٍ من بذور اليقين في نفوسهم

بأنّ طريقهم واحد .

ووطنهم واحد . وهدفهم واحد

وهو معرفة الحقّ الذي يحرّر من كلّ قيد وحدّ -

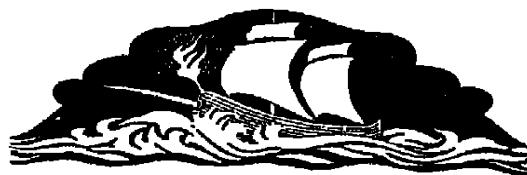
حتى من الموت -

لو فعل الناس ذلك لتجندوا على بكرة أبيهم .

لا بعضهم ضدّ بعض .

بل في سبيل ذلك المدف والوصول إليه .

إِلَّا أَنَّ الظُّلْمَاتِ الَّتِي تَتَدَفَّقُ عَلَيْهِمْ
 مِنْ كَهْوَفٍ وَزَارَاتِ الْحَرُوبِ
 تَغْشِي عَيْنَهُمْ فَلَا يَبْصُرُونَ ،
 وَتَسْدِّ آذَانَهُمْ فَلَا يَسْمَعُونَ ،
 وَتَعَطَّلُ تَفْكِيرُهُمْ فَلَا يَفْقَهُونَ مَا يَقُولُونَ وَيَعْمَلُونَ .
 ذَلِكَ ، يَا رَبِّي ، هُوَ جَانِبٌ آخَرٌ
 مِنْ جَوَانِبِ الْوَجْهِ الْمُظْلَمِ لِحَيَاةِ عَلَى الْأَرْضِ .
 وَهُوَ الْجَانِبُ الَّذِي كَثِيرًا مَا يَحْجِبُكَ عَنِي
 فَأَطْلُبُكَ وَلَا أَجِدُكَ ،
 وَتَنَادِيُنِي فَلَا أَسْمَعُكَ .



وهناك الجانب الأشد ظلاماً.

وظلامه يأتي من كهوف
ليتها كانت من الصخر أو من التراب.

ولكنها من الحديد والفولاذ ،
ومن الإسمنت المسلح ،

لا تفعل فيها الأزاميل والمطارق ،
ولا يخربها الرصاص والديناميت .

تلك الكهوف هي أقدس أقدس العالم .

فيها يصلّى .

وفيها يقدم قرابينه .

وبها تتصل شرايين قلبه .

ومنها تنبع الحرارة والحركة في مفاصله .

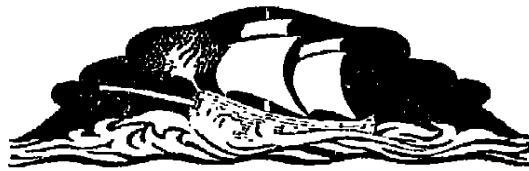
وهو يحرض عليها

أشدّ من حرصه على حدقة عينه .

وعلى النفس في صدره .

في تلك الكهوف
يصنع العالم ويختزن نقوده
من ذهبٍ وفضةٍ ونحاسٍ ،
وأوراقٍ تقوم مقام النحاس والفضة والذهب ،
ومنها يرسلها لتدور في جسده وتدفعه على الحركة
 تماماً كما يدور الدم في الجسم الحي
ويدفعه على الحركة .
وحىثما افتقر إليها إنسان من الناس ،
أو شعب من الشعوب .
أصيب ذلك الإنسان أو الشعب
بفقر الدم وكلّ ما يلزمه من أعراض خبيثة .
وأنجذبها انكسار الجفن والقلب
وفقدان الشعور بلذة البقاء
وبالكرامة الإنسانية .
حتى البهائم والطيور والنباتات

التي تتّكل في عيشهما على الانسان
 تُصاب بفقر الدم
 وتفارقها بهجة الحياة
 إذا ابْتُلَى أصحابها بالفقر إلى المال .
 وما أَكْثَرَ الَّذِينَ تهجرُهم الحياة
 لَا لِعَلَّةَ فِي أَجْسَادِهِمْ
 بل لِأَنَّ الْمَالَ هُجْرَ جِيوبِهِمْ !



داءٌ مقيت ومميت هو الفقر .
 وأمّقت منه بكثير ،
 وأشدّ فتكاً بال أجساد والنفوس معاً

هو داء الغنى .

فمن شأن الناس والشعوب

الذين انتفخت جيوبهم وصناديقهم بمال

أن يتصرفوا كما لو كانوا هم

أسياد الناس والشعوب دون منازع .

وكم لو كان لهم الحق الأول والنصيب الأكبر

في خير ما ينتجه الناس .

وخير ما تجود به الأرض والسماء .

ولكتّهم . وهم في نسوة الاعتزاز بالسلطان

الذي يحمله إليهم المال .

وبالبحبوحة التي يضفيها على حياتهم ،

قلما يُلقون أي بال

إلى الجرائم الفتاكـة التي ينفثها المال

في أجسادهم وأرواحهم بالسواء .

وإذا بهم يُصابون . أول ما يصابون .

بضروب وضروب من الشلل :

فشل في الفكر .

فشل في الوجودان .

فشل في البصيرة .

فشل في الإيمان .

أما الشلل الأفظع والأدھى

فهو شلل الإنسان في الإنسان .

إذاء هذه الضروب من الشلل

يهون القلق والأرق وشغل البال

والخوف المستمر

من أن تبدر من المصاب بداعٍ الغنى أيّ بادرة

تنفرّ منه المال .

فهل أَعْجَب من ذي داعٍ عياء

لا يريد لدائه البراء ؟ !

تلك هي حال الناس مع المال .

ولا غرو .

فهم بمال يأكلون ويشربون ويكتسون ،
وبمال يتنفسون ويتحرّكون ويعملون .

بمال يصعدون إلى القمر ،
وبمال إلى أعماق اللجة يهبطون .

بمال يبنون ويهدمون ،
وبمال يتحاربون ويتصالحون .

بمال تدور مصانعهم ومعاملهم ومتاجرهم ،
وبمال تدار حتى مدارسهم ومعابدهم .

بمال يحكمون ويُحكمون ،
وبمال على حكامهم يثورون .

بمال يولدون ويتزوجون ويتناسلون ،
وبمال يداون أمراضهم ويموتون ويُدفنون .

ما من شيء يحتاجون إليه في حياتهم
مما في السماء أو على الأرض

إِلَّا يُبَاعُ وَيُشْرِى بِالْمَالِ -
حَتَّى الماءُ وَالهواءُ وَنُورُ الشَّمْسِ ،
وَهُنَّ الْفَضْيَلَةُ وَالْجَمَالُ
وَمَا كَانَ غَذَاءً لِلْفَكَرِ وَالْقَلْبِ
وَلِلْمُوجَدَانِ وَالْخِيَالِ .

فَمَا دَامَ لِلْمَالِ ذَلِكَ السُّلْطَانُ الرَّهِيبُ
فِي أَعْنَاقِ النَّاسِ وَأَرْزَاقِهِمْ
أَفَلَا غَفَرَتْ لَهُمْ . يَا رَبِّي . رِيَاعَهُمْ
كُلَّمَا سَبَّحُوكَ بِالسَّنَتِهِمْ وَشَفَاهُهُمْ وَمَجَدُوكَ
فِي حِينَ أَنَّهُمْ بِقُلُوبِهِمْ وَأَفْكَارِهِمْ لِلْمَالِ يَسْجُدُونَ .
وَأَمَامَ عَرْشِهِ جَبَاهُهُمْ يَعْفُرُونَ .
وَبِاسْمِهِ يَتَبَرَّكُونَ .

وَبِجَبْرُوتِهِ فِي كُلِّ سَاعَةٍ يَشَهُدُونَ ؟
وَهُلَّ النَّاسُ غَيْرَ أَطْفَالٍ
يَتَلَهَّوْنَ بِالْأَعْيُبِ خَلَقُوهَا ؟

وأَحَبُّهَا إِلَى قُلُوبِهِمْ لِعَبَةِ الْمَالِ .

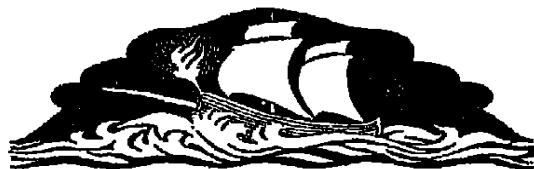
وَلَعَلَّهُمْ مَتَى شَبُّوا جَمِيعَهُمْ عَنِ الطَّوقِ -

وَقَلِيلٌ جَدًّا هُمُ الَّذِينَ شَبُّوا عَنْهُ -

يَسْتَبِدُّونَ بِسُلْطَانِ الْمَالِ

سُلْطَانُكَ وَحْدَكَ ، يَا رَبِّيِّ .

الَّذِي هُوَ سُلْطَانُ الْمُحْبَّةِ .



وَاغْفِرْ لِي ، يَا رَبِّيِّ ،

بِخُورًا حَرَقْتَهُ عَلَى مَذْبُحِ الْمَالِ

وَسَاعَاتٍ هَدَرْتَهَا فِي اسْتِرْضَائِهِ

كَيْمًا أَسْتَرْ عَرَبِيِّ .

وأسكت جوعي وعطشى ،
وألهي عيني وأذنى ،
وابني لجسدي مأوى .

وأحفظ ماء وجهي بين الناس .

أولست من لحمٍ ودم ؟

وللّهم والدم حاجات تتجدد وتتكرر باستمرار .

وهي لا تفتاً تضيق وتضيق
إلى أن تنقضي .

وهي لا تنقضي إلا بمال .

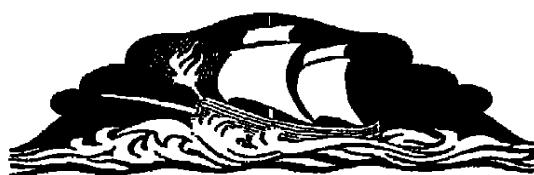
فما حيلتي ؟

على أنني ما استعطفت المال مرّة
إلا شعرت بتقزّز من نفسي ومن المال .

ولا باركته مرّة
إلا لعنته ألف مرّة .

ولا حرقـت له البخـور

إِلَّا اخْتَنَقْتُ وَاحْتَرَقْتُ بِبَخْرَيْ .
وَلَا هَدَرْتُ سَاعَةً فِي اسْتِرْضَائِهِ
إِلَّا تَأَلَّمَتْ سَاعَاتٍ مِنْ ثُورَةٍ فِي ضَمَيرِي .
وَحْسِبِي بِلَاءً مِنْهُ
أَنَّنِي كُلَّمَا أَبْصَرْتُ وِجْهَهُ
غَابَ عَنِّي وِجْهُكَ .
وَكُلَّمَا فَرَحْتُ بِهِ
ضَاعَ عَلَيَّ فَرْحَيْ بِعِجَابِكَ
وَأَهْمَمُهَا الْعَجِيْبَةُ الْكَبِيرَى الَّتِي هِيَ
الْإِنْسَانُ .



إِيْ . مشوش هو عالم الناس ، يا ربِّي -
مشوش أَفْطُع التشویش .

والغريب أَنَّه يحاول أَبْدًا تنظيم تشویشه
فيأْتِي تنظيمه ضغثاً على إِبَالَة ،
أَوْ زِيادة بِلَة في الطين .

لو كان لِلأَرْض أَنْ تَحْكِي تارِيخَها مع الناس
لصُعُقَ الناس .

فهم منذ أَنْ استوطنوها
قبل ملِيون سنة وأَكْثَر
ما فتئوا ينظِّمون علاقاتهم معها

ومع بعضهم البعض
فلا يستقرُ لهم نظام .

لقد اقتسموا الأَرْض
وتواصوا فيما بينهم
أَنْ لا يتعدَّى أحدهم حدود الآخر .

فلم يلبثوا أن اختلفوا على القسمة .

ولا يزال الخلاف قائماً بينهم

منذ فجر تاريخهم

وحتى اليوم .

ولو أنه كان خلافاً يبتدئ بالكلام

وينتهي بالكلام

لهان الأمر .

ولكنه خلاف تدرج على كر العصور

من استخدام الأكف والأرجل والأسنان

إلى استخدام المقلاع والقوس والنشاب ،

فالمدية والرمح والسيف ،

فالبارود والبارودة والمدفع ،

فالديناميت وغيره من المتفجرات ،

فالقنابل المحرقة والجرثومية تقذفها الطائرات ،

فالقنابل الذرية والهيدروجينية ،

فالصواريخ عابرات القارات ،
فالاًقمار الصناعية تمخر عباب الفضاء .
ناهيك بالأساطيل تجوب البحار
وتحمل الموت والدمار .
والحبال على الجرار .
وماذا كان من هذه الأسلحة جمِيعها ؟
كان منها أنها راحت تعثُّ
بحدود الناس وسُلودهم
كما تعثُّ الريح بالغيوم في السماء
فتنشر الغيمة الصغيرة
وتطوي الغيمة الكبيرة
أو تمزّقها شرّ ممزق .
والناس ، مع ذلك ، لا يرعون
ويمضون في غيّهم يمعنون
وعلى تقسيم الأرض يصرُّون .

ولأنَّ الأَرْضَ لِيُسْتَ لِقَبِيلَةٍ دُونَ قَبِيلَةٍ ،
أَوْ لِشَعْبٍ دُونَ شَعْبٍ ،
أَوْ لِدِينٍ دُونَ دِينٍ ،
بَلْ هِيَ إِرْثٌ مُشْتَرِكٌ لِلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ،
فَهِيَ تَأْبِي أَنْ تُتَقْسَّمَ .
وَكُلُّ مُحاوْلَةٍ يَقُومُ بِهَا النَّاسُ لِتَقْسِيمِهَا ،
ثُمَّ لِلْحَفَاظِ عَلَى ذَلِكَ التَّقْسِيمِ ،
مُحاوْلَةٌ مُقْضِيٌّ عَلَيْهَا بِالْفَشْلِ الذَّريعِ
وَبِكُلِّ مَا يَرَاقُ ذَلِكَ الْفَشْلِ
مِنْ دَمَعٍ وَدَمٍ ،
وَحَرْقَةٍ وَلَوْعَةٍ ،
وَدَمَارٍ وَبَوارٍ ،
وَمَوْتٍ زَوْاًمٍ .

لَكَانَّيِ بالأَرْضِ مِنْذَ أَنْ وُلِدَ لَهَا الإِنْسَانُ
وَانْتَشَرَ نَسْلُهُ فِي أَرْجَائِهَا

فراح يمزّقها إرباً إرباً -

لـكـأـيـ بـهـاـ تـخـاطـبـهـ فـتـقـولـ :

«ما هـكـذاـ يـاـ سـعـدـ تـورـدـ الـإـبـلـ».

ما هـكـذاـ يـلـيقـ بـالـإـبـنـ الـبـارـ

أـنـ يـتـصـرـفـ تـجـاهـ أـمـهـ .

فـأـنـاـ مـاـ وـلـدـتـكـ أـنـتـ وـنـسـلـكـ

لـأـشـقـىـ بـكـمـ وـتـشـقـواـ بـيـ

بـلـ لـتـسـعـدـوـاـ بـيـ وـأـسـعـدـ بـكـمـ .

وـلـقـدـ هـيـّـاتـ لـكـمـ كـلـ مـاـ تـحـتـاجـونـ إـلـيـهـ

مـنـ غـذـاءـ وـكـسـاءـ وـمـأـوىـ ،

وـبـهـجـةـ لـلـعـيـنـ وـالـأـذـنـ ،

وـمـتـعـةـ لـلـأـنـفـ وـالـلـسـانـ ،

وـمـسـارـحـ بـغـيرـ حـدـودـ لـلـفـكـرـ وـالـخـيـالـ وـالـوـجـدانـ .

عـلـىـ أـنـ لـاـ تـنـسـوـاـ أـبـدـاـ

أـنـكـمـ عـائـلـةـ وـاحـدـةـ .

وَأَنَّ لَأَصْغُرَكُمْ وَأَضْعَفَكُمْ
مِنَ الْحَقِّ فِي أُمُومِي
وَكُلَّ مَا تَدْرِهُ عَلَيْكُمْ مِنْ حُبٍّ وَخِيرَاتٍ
مِثْلَمَا لَأَكْبَرَكُمْ وَأَقْوَاكُمْ .
وَلَكُنَّكُمْ سَرْعَانٌ مَا نَسِيْتُمْ .
وَسَرْعَانٌ مَا تَنْكِرْتُمْ لِبُنُوتَكُمْ وَأُمُومِي ،
فَرَحْتُمْ تَنْظَمُونَ صِلَاتَكُمْ بِي
عَلَى أَسْسٍ أَوْهِيَ مِنْ خِيَطِ الْعَنْكَبُوتِ
كَأَنَّ يَكُونَ لِلْوَاحِدِ مِنْكُمْ
نَصِيبَ الْأَسْدِ مِنْ خِيرَاتِي
وَلَا يَكُونُ لِلْمَلِيُونِ مِنْ إِخْوَانِهِ
أَيْ نَصِيبٍ .

لَذِكَّرْكَ مَا اسْتَقَامَ لَكُمْ نَظَامٌ مَعِي
وَلَنْ يَسْتَقِيمَ .
وَلَذِكَّرْكَ مَا جَنَيْتُمْ

ولن تجنوا من نظمكم
غير التشويش
وكلّ ما في التشويش من نزاع وصراع ،
وما في الصراع والنزاع
من مراة الحقد والألم
ومن بشاعة الشحنة والبغضاء .
ومثلكما حاولتم على مدى مليون سنة
أن تنظّموا علاقتكم معى
فلم تجنوا من محاولتكم غير التشويش
كذلك حاولتم وتحاولون
تنظيم علاقاتكم مع بعضكم البعض
فلا يستقرّ لكم نظام .
فلا الزوج مع زوجه في سلام ،
ولا الأخ مع أخيه في وئام .
أمّا الحاكم والمحكوم ،

والخادم والمخدوم .

والبائع والشاري .

والمؤجر المستأجر .

والملّم والمتعلّم .

والمنتج المستهلك .

والقاضي والمتقاضي .

وغيرهم وغيرهم من صنوف الناس

فهؤلاء جميعهم أبداً في حذر بعضهم من بعض
وكثيراً ما ينقلب الحذر إلى خصم .

وأما النقد الذي اتخذتموه ميزاناً لآثمانكم

وجعلتموه المهيمن الأكبر

والسيد المطلق في علاقاتكم بعضكم مع بعض
في حاله حال الزئبق بال تمام .

فهو كلما ارتفع أو انخفض

ارتفع ضغط الدم في شرايينكم وانخفض .

فدبٌ الذعر في نفوسكم :
واختلَّ نبض قلوبكم ،
فرحِم تعقدون المؤتمرات ،
وتدبُّجون المعاهدات ،
ولكن دون جدوٍ .

فالزئبق يبقى زئبقاً ،
ومحاولتكم تجميده
لا تزيدكم غير تشويش فوق تشويش .

لعلَّ أَغرب ما رأيته من تشويشكם
هو تلك المجالس التي ابتدعتموها
لا شيء
إلا لخلق شرائع تبغون منها
تنظيم تشويشكם .

وإذا بتلك الشرائع تملأ جبالاً من المجلَّدات .
وإذا بتشويشكם

يتتفاهم يوماً تلو يوم
وعاماً بعد عام .

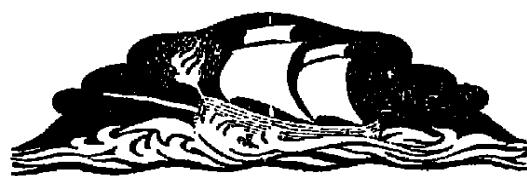
أَفَمَا آنَ لَكُمْ أَنْ تَدْرِكُوا
أَنَّ أُمُومِي

هِيَ وَحْدَهَا النَّظَامُ ؟
فَإِنَّا مَا أَبْحَثُ لَكُمْ كُلَّ مَا فِي صَدْرِي
مِنْ لَبِنٍ وَعَسْلٍ
وَمَنْ ^{شَغَلَ} وَسْلُوِي

إِلَّا لِيَنْعَمْ بِهِ الْمَقْعُدُ مِنْكُمْ وَالْمَجْنَحُ ،
وَالْأَبْرَصُ وَالسَّلِيمُ ،
وَالْجَاهِلُ وَالْعَاقِلُ ،
وَالْأَبْيَضُ وَالْأَسْوَدُ ،
وَالْمَلِحَدُ وَالْمُؤْمِنُ .

فَكُلُّكُمْ أَبْنَائِي .
وَكُلُّكُمْ فِي عَطْفِي وَمَحِبَّتِي سَوَاءٌ » .

هكذا يُخَيِّلُ إِلَيْهِ
 أَنَّ الْأَرْضَ تَخَاطِبُ النَّاسَ أَبْدًا
 بِمِثْلِ هَذَا الْكَلَامِ ،
 بَلْ بِمَا هُوَ أَبْلَغٌ مِنْ هَذَا الْكَلَامِ بِكَثِيرٍ .
 وَلَكَنَّهُمْ ،
 كَمَا قِيلَ فِيهِمْ مِنْ زَمَانٍ ،
 لَهُمْ عَيْنَوْنَ وَلَا يَبْصِرُونَ ،
 وَلَهُمْ آذَانٌ وَلَا يَسْمَعُونَ .



طفلك أَنَا يَا رَبِّي .
 وَهَذِهِ الْأَرْضُ الْبَدِيعَةُ ، الْكَرِيمَةُ ، الْحَنُونُ

التي وضعتنى في حضنها
ليست سوى المهد
أدرج منه إليك .
إلا أنه ليس مهدي وحدى
بل تشاركتني فيه
ربوات وربوات من مخلوقاتك .
بعضها على صورتى ومثالى ،
وهو القليل القليل ،
وبعضها يختلف عن صورةً ومثalaً ،
وهو الكثير الكثير .
وهذا القليل القليل ،
وهذا الكثير الكثير ،
كلهم دون استثناء
يمتص رحيق الوجود
من ثدي واحد

هو ثدي الحياة - حياتك .

فكانهم العنقود في الكرمة

مهما كثُرت حباته

وتفاوتت لوناً وحجماً وطعمها ،

تبقى لكل حبة عنق تصلها بالعنقود

وبها يمتص عصير البقاء .

وتبقى للعنقود عنقه التي تصله بالكرمة .

والتي بها يمتص الحياة

ويوزعها على حباته وحبيباته .

وتبقى للكرمة جذورها

التي بها تنهل إكسير الحياة

من التراب والبحر والشمس والهواء .

وكل منظور وغير منظور في الفضاء .

وهذه الشراكة في الرضاعة

كانت وحدها قمية

بأن تجعل من مخلوقاتك جميعها
أسرةً تشدها بعضها إلى بعض .
وتشدُّها إليك ،
أواصر محبة لا يقوى الزمان ،
ولا الموت ،
على فصمها .
ولكن ...

على من أعتب من مخلوقاتك
إذا هو تنكر لأخوة الثدي .
وبالتالي للمحبة ؟
أعتب على الذئب لا يؤاخِي الْحَمَل ؟
أم على الصقر ينسى أنه والعصفور
أخوان في الرضاعة ؟
أم على الهر يفتاك بالفأر
وكلاهما يأكل من معجن واحد ؟

لا. لا أعتب على أي مخلوق دون الانسان.
وأعتب على الانسان.

فهو وحده بين سائر مخلوقاتك على الأرض
مؤهل لأن يُقيم وزناً لأنوثة الثدي ،
وأن يعرف أي قوة خارقة
هي المحبة النابعة من تلك الأنوثة ،
وأن يؤمن باحتمالية تلك المحبة ،
فيجعلها الأساس الذي تقوم عليه علاقاته
مع إخوانه الناس
ومع باقي شركائه في بركات الأرض والسماء .
وحده الإنسان يستطيع أن يوسع ذاته
إلى أن تشمل كل ذات .

فيبارك لاعنيه ،

ويعطف على مبغضيه ،
ويُشفع على حاسديه ،

ويطعم عدوه إذا جاع ،
وينقذ حياته إذا تعرض للخطر .

لأنَّ هؤلاء جميعهم

هم منه وفيه .

بهم يحيى .

وبه يحيون .

وحده الإنسان يستطيع أن يدرك

عظمة المحبة وجبروتها

فهي إن لم تكن في بؤبؤ العين

كان كلّ ما تبصره العين ضباباً في ضباب .

وهي إن لم تكن في طبلة الأذن

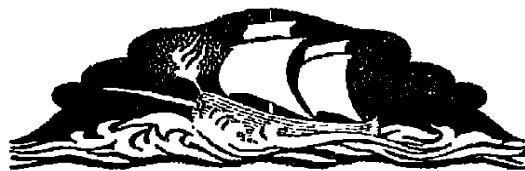
كان كلّ ما تسمعه الأذن نشازاً في نشاز .

وهي ما لم تدفع اللسان على الكلام

كان كلّ ما يقوله اللسان هزياناً في هزيان .

وهي ما لم تحرّك أصابع اليد

فلا قيمة لكلّ ما تعمله
 ولكلّ ما تعطيه أو تأخذه اليد .
 وهي ما لم تكن في حبّة القلب
 كان كلّ ما يحبّه القلب سراباً في سراب .



كُمْ كنْتُ أَتَمْنِي ، يَا رَبِّي : -
 ورَسُولُكَ باتَ عَلَى قِيدِ باعِرِ منْيِ . -
 لَوْ كَانَ لِي أَنْ أَسْتَقْبَلَه
 وَلَيْسَ فِي بَؤْبُؤٍ عَيْنِي .
 أَوْ فِي طَبْلَةِ أَذْنِي ،
 أَوْ فِي لِسَانِي

أو في أناملي ،
أو في حبة قلبي
إلا المحبة !

ليته كان في مستطاعي
أن أمحو من ذاكرتي
كل صورة ،
كل فكرة ،
كل نية ،
كل شهوة ،
كل لذة ،
كل شكوى
كان فيها شيء من التجديف على المحبة !
ليته كان في مستطاعي أن أفعل ذلك
حتى إذا جاء رسولك
ليقطع الأمaras التي تشدّني إلى الأرض

فتحت له صدري ،
ومددت إلية يدي ،
ومعاً قطعنا الأمانس .

على أنني ، وإن جدّت على المحبة
في ما عبّر من أيامي ،
ففي قرارة نفسي اليوم
إيمان عميق جدّاً -

إيمان لا يتزعزع -

بيان المحبة وحدها هي المفتاح
لكلّ ما أغلق علىّ من أسراري
وأسرار الكون .

وهي وحدها الدواء الشافي
لكلّ ضروب القلق والحزيرة والتمزّق
والخوف من سوء المصير .

أليس أن الشوق إلى المعرفة

يكونني بما يشبه الجمر؟

وهل تكون المعرفة معرفة

إلا إذا هي تناولت كلّ ما كان،

وما هو كائن،

وما سيكون؟

وهل في استطاعة أي إنسان

أن يعرف شيئاً يكرهه؟

أليس أن كرهي لأي شيء،

أو لأي إنسان

يقوم سداً منيعاً بيني وبين معرفتي لهما؟

ذلك السد لا يخرقه المنجنون،

ولا يدكه المدفع،

ولا يجرفه السيل،

ولا يقتلعه الإعصار،

ولا تلتهمه النار.

ولكنه يتلاشى من أمام وجه المحبة
كما يتلاشى الدخان من أمام وجه الشمس .
ومثل شوقي إلى المعرفة
هو شوقي إلى الحرية -
حربي من كل قيدٍ وحدٍ وسدٍ .
وما أكثر القيود والحدود والسدود
التي تواجهني في كل لحظة من وجودي
على الأرض !
وهذه القيود والحدود والسدود
لا يمضغها ويهضمها اللحم والدم ،
ولا يفتتها الزمان ،
ولا يصهرها المكان -
فهذه كلها هي قيود وحدود وسدود .
وتمضغها وتهضمها ،
وتختبئها وتصهرها

المحبة .

إِنَّ بَسْمَةَ تَقْفَزُ مِنْ قَلْبِي إِلَى عَيْنِي ،
دُونَ أَيِّ تَصْنُعَ أَوْ تَكْلُفَ ،
عِنْدَمَا أَمَدَ يَدِي لِأَيِّ إِنْسَانٍ
لَتَفَعَّلَ فَعْلَ السُّحْرِ فِي ذَلِكَ الْإِنْسَانِ .
فَهِيَ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَجْرِدَهُ مِنْ أَيِّ مَا سَلَّاحَ يَحْمِلُهُ ضَدِّي
إِنْ فِي قَلْبِهِ ،
أَوْ فِي رَأْسِهِ ،
أَوْ فِي جَيْبِهِ .

بَلْ هِيَ كَفِيلَةٌ بِأَنْ تَفْتَحَ لَهُ بَابَ قَلْبِي
وَتَفْتَحَ لِي بَابَ قَلْبِهِ .
فَكَيْفَ بِالْجَسْمِ كُلِّهِ
إِذَا كَانَ لَا يَشْعُرُ
إِلَّا بِالْمَحْبَةِ ؟
فِي اسْتِطَاعَةِ مُثْلِ ذَلِكَ الْجَسْمِ

أن يساكن العقارب والأفاعي ،
وأن يؤاخي سباع البر
وكواسر الجو .

وقبل أن يشع الجسم بالمحبة
لا بد للروح الذي يحركه
من أن ينصلح في أتون المحبة
كيلا يشع
إلا بالمحبة .

ولكي ينصلح الروح في أتون المحبة
عليه أن يحرق كل شهوة ونزوة .
وكل فكرة ونية ،
وكل عمل وكلمة ،
وكل ميل ووهم ،

وغيرها وغيرها من الأحساس والتخيلات
التي من شأنها أن تُقيم الحدود

وتبني السُّدود

بينه وبين سائر الكائنات.

وهكذا تقطع عليه الطريق

إلى المعرفة التي تحرر ،

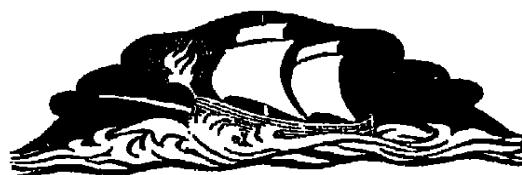
والحرية التي تعرف ،

والمحبة التي لولها

لما كان من قيمة أو معنى

لأي معرفة

وأي حرية .



ربّي ! لقد أسبغتَ علىَّ من الهبات
ما لو شئتُ أن أحصيه
لما بلغت نهاية .

وكان أروع ما وهبتي ،
وأثمن ما وهبتي ،
وأعظم ما وهبتي
على الاطلاق .
المحبة .

إلا أنها هبة لم استشعر منها حتى اليوم
غير البسيير البسيير .

فما انصرفتُ إليها مرّة لأحيا بها
حتى صرفي عنها ،
وفي مثل رفة الجفن ،
ألف هاجس وهاجس .

لقد كان لها

أن تجري جريان الدم في عروق
والنَّفَس في صدرِي .

لقد كان لها وحدها -

وهي أُم كلّ أُمّ
وعلة كلّ علة -

أن تتحلل ذلك الكشكوك العجيب

الذي ضمن جمجمتي

فتتضيى تغربل ما فيه

وتخلله وتصفيّه

إلى أن لا يبقى منه

غير الذي يليق بصفاتها

وجلالها وبهائها .

ولكن ...

أَنَّى لي ذلك

وأَنا ما وعيت المحبة وعظمتها المحبة

إلا من بعد أن امتلاً كشكولي
حتى الفيضان
بربوات من الشاردات والواردات
التي لا شيء عليها
من بريق المحبة؟
ثم أني لي ذلك ، -
والكشكول كشكولي ، -
ولكنني لست سيده المطلق
أدخل إليه ما أشاء ساعة أشاء ،
وأنبذ منه ما أشاء ساعة أشاء ،
وأمنع التسلل إليه على ما لا أشاء؟
وهل لي أو لأي ملاك أو شيطان
أن يحصي ما تقبله ذلك الكشكول
من العجائب والغرائب
منذ نعومة أظافري

وحتى الساعة؟

إنه لـعـالـم في عـالـم في عـالـم.

منها التافه منتهي التفاهة.

ومنها الجليل غاية الجلالة.

ومنها ما هو بين - بين.

وهذه العـالـم جـمـيعـها ،

وهي بـعـضُ منـي ،

يتصرـف بها على هـواه

ذـلـك الـبـهـلوـان الأـكـبر

الـذـي هو فـكـري .

فـهـو لا يـنـفـك لـحـظـة وـاحـدـة

إـنـ في الـلـيل أـوـ في النـهـار ،

وـإـنـ في الـيـقـظـة أـوـ في المـنـام ،

عن العـبـث بـتـلـك العـالـم وـمـحـتـوـياتـها

حتـى لا تـكـاد تـسـتـقـرُ أـكـثـر من لـحـة وـاحـدـة

في حالة واحدة .

فكأنها الكومة من حبوب الحنطة ،
أو غيرها من الحبوب ،
وكأنه الولد يذروها بيديه الاثنين ،
ودونما انقطاع ،
فلا هو يستريح ،
ولا هي تتعب .
ولا هو يزيد فيها حبة
أو ينقص حبة .

والطريف في تلك اللعبة
التي يلعبها البهلوان الأَكْبر
بمحتويات الكشكول العجيب ضمن ججمجمتي
أنَّه يكشف لي منها في بعض الأحيان
أشياء تبعث في النفس شعوراً
بالفرح الذي لا يوصف .

فتشتمني النفس لو أن ذلك الشعور يبقى
ما بقيت هي
وبقي الزمان .

ولكنه شعور لا يلبث أن يفلت من النفس
عندما يعود البهلوان الأكبر
فيكشف لها أشياء وأشياء ،
ومشاهد تلو مشاهد ،
بعضها يبعث فيها الحزن ،
أو الخوف ،
أو الحيرة ،
أو السأم ،
أو الندم ،
أو اللامبالاة ،
أو أي شعور آخر ،
من المشاعر التي يتَّالِفُ منها

سلم الأحساس والرؤى الإنسانية .
وأطرف من ذلك كله
أنَّ الفكر ، وهو لاِه بلعنته تلك ،
لا يفتَّ يتكلّم ،
ولكن دون صوت .

فما أكثَر ما يخاطب ذاته ،
أو يخاطب شتى الأشياء والظروف ،
وشتى الكائنات القريبة والبعيدة ،
وشتى الأرواح الهائمة في الأرض
أو في الفضاء ،
وحتى الآلة !

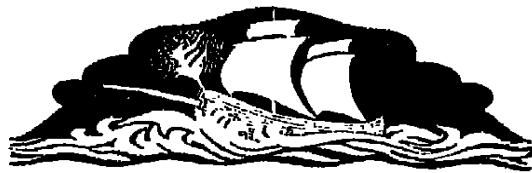
لو كان لي أنْ أُسجِّل
كل ما يقوله فكري لفكري
في كل ساعات الليل والنهار
دون أن يتلفظ به لساني ،

ودون أن تسمعه أذني
أو أذن أي إنسان أو حيوان
لصُعِقت !

فكيف بي
لو كان لي أن أسمع كل ما قاله الناس في سرّهم
منذ أن كان الناس ،
وما ي قوله اليوم جيراني
في الزمان والمكان ،
لا بالاستheim وشفاهم
بل في قراره نفوسهم ؟ !
إني لأشجع عن التكهن
بما كان من الممكن أن يحدث لي
ولإخواني الناس .

وأغلب الظنّ أني كنت أصبح
وكانوا يصيرون :

«هذه الأرض ليست سوى بيت للمجانين !»



ذلك البهلوان الأكبر . يا ربِي ،
الذي هو فكري ،
كيف لي أن أهنا بالعيش وإيابه ؟
إنه الأمر الذي لا مرد لأمره ،
والناهي الذي يأبى على إلا الرضوخ لنهيه .
إنه سيد المطلق ، المستبد
وأنا عبده الخانع ، الذليل .
ولكم حاولت -
أجل . حاولت -

أن أقلب الوضع بيدي وبينه
رأساً على عقب ،
فاصبح سيده المطلق ،
ويصبح عبدي المطيع .
ولكنَّ محاولاً تي ذهبت أدراج الرياح .
فما تمكنتُ مرّة من أن أسمِّه
ولو لدقيقة واحدة
على صورة بعينها ،
أو فكرة بعينها ،
أو حالة نفسية بعينها ،
من الصور والفكَّر والحالات النفسية
التي يعجُّ بها الكشكوك ضمن جمجمتي .
لقد كان في كلّ مرّة ،
وما يزال ،
يهرب مني كما يهرب الهواء ،

أَوِ الماء ،

أَوِ الزئبق

مِنْ بَيْنَ أَنَامْلِي .

وَكُنْتُ فِي كُلٌّ مِرَةً أَشْعَرُ

كَمَا لَوْ كَانَ يَلْعَبُ بِي

لَعْبَ الْأَوْلَادِ بِالْأَكْرَ.

فَأَتَحْرَقُ وَأَتَمْزَقُ ،

وَأَعْضُّ عَلَى جَرْحِي

وَأَسْكَتُ .

وَيَخْيَلُ إِلَيَّ أَنَّ حَالِي مَعَ فَكْرِي وَبَهْلَوَانِيَاتِهِ

هِيَ حَالٌ لَا تَحُولُ .

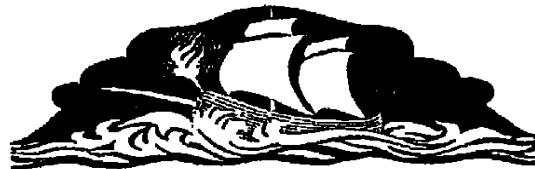
فَكَانَهَا مَلَازِمَةٌ لِي وَلِأَبْنَاءِ جَنْسِي

مَلَازِمَةُ الْحَرَارَةِ وَالنُورِ وَالْحَرْكَةِ لِلشَّمْسِ .

وَكَانَهُ مَقْضِيٌّ عَلَيَّ مَا حَيَّتِ

أَنَّ أَعِيشَ سَاعَةً يُسْرِي وَسَاعَةً عُسْرًا .

وَأَنْ أَصْطَادُ فِي الْمَاءِ الْعَكِيرِ
فَلَا أَدْرِي أَلَذَّةً أَصْطَادُ
أَمْ أَلَمًا مِبْرَحًا.



كَانَ ذَلِكُ ، يَا رَبِّي ،
قَبْلَ أَنْ وَعَيْتَ عَظَمَةَ الْمُحَبَّةِ
وَحَتْمِيَّةَ الْمُحَبَّةِ ،
فَأَيْقَنْتَ أَنَّهَا هِيَ الْحَيَاةُ ،
وَأَنَّ الْحَيَاةَ هِيَ ،
وَأَنْ لَا فَارِقٌ وَلَا فَاصلٌ
بَيْنِ الْإِثْنَيْنِ .

أَمَا الْيَوْمُ

فَقَدْ بَتَّ وَلَا شَيْءٌ يُغَرِّنِي

عَلَى قَدْرِ مَا يُغَرِّنِي

أَنْ أَرَى الْمُحْبَّةَ وَحْدَهَا

تَتَسَلَّمُ زَمَامَ كَشْكُولِي وَمَحْتَوِيَّاتِهِ

فَتَمْسَهَا بِمَسْحِتِهَا السُّحْرِيَّةِ

وَإِذَا بِهَا جَمِيعَهَا

ذَرِيرَاتُ شَفَافَةٍ كَالْأَثَيْرِ

مَتَمَاسِكَةٌ بِإِكْسِيرِ الْمُحْبَّةِ ،

لَا تَنْبَضُ بِشَيْءٍ

وَلَا تَعْكَسُ أَيّْ شَيْءٍ

إِلَّا الْمُحْبَّةُ

فَلَا عُسْرٌ بَعْدَ ذَلِكَ وَيُسْرٌ .

لَا حُزْنٌ يَضْغِطُ عَلَى الْقَلْبِ بِكَلَالِيبِ مِنْ حَدِيدٍ

أَوْ فَرَحٌ يَكادُ يَفْجُرُهُ شَظَائِيَا .

لا ساعة حبلى بالأَمْل
وأُخْرَى تتمَّضَ عن توائِمِ الْأَلْمِ .
لا اعتزاز بِمَالٍ أَوْ بِشَهْرَةٍ أَوْ بِجَاهٍ أَوْ بِسُلْطَانٍ ،
ولا خوف من زوال هذه جمِيعها .
لا زهو بِانتصَارٍ كَبِيرٍ أَوْ صَغِيرٍ ،
ولا انسحاق بهزيمة نكَرَاء .
لا تطُلُّ إِلَى ساعَةٍ ضاحِكةٍ ،
ولا هروب من ساعَةٍ باكِيةٍ .
لا ندم على دقِيقَةٍ مضت ،
وتَمْسِكٌ بدِقِيقَةٍ تُعاشرُ ،
وقلق على دقِيقَةٍ تَأْتِي .
لا عين تستأنس بِمَشَهَدٍ وتُنَفِّرُ مِنْ مشَهَدٍ .
لا أَذْنٌ تُطَربُ بِصَوْتٍ وَتَخَدَّشُ بِصَوْتٍ .
لا يَدٌ تستَنْعِمُ بِالْخَزَّ وَتَسْتَخْشِنُ الشَّعْرَ .
لا لِسَانٌ يُقْبَلُ عَلَى الشَّهْدِ وَيُدَبِّرُ عَنِ الْعَلْقَمِ .

لا أنف ينفتح لمسكن الغزال
ويينغلق دون قذارة الظُّربان.

لا فوق ولا تحت.

لا قبل ولا بعد.

لا «أنا» ولا «غير أنا».

لا أنداد ولا أضداد

مما في السماء وعلى الأرض.

بل هناك وحدة سرية . قدسية ، سرمدية

لا تدرك ولا توصف ،

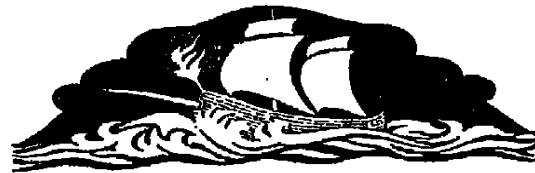
تتلاذى فيها . البدايات والنهايات .

والساعات والمسافات ،

وتبقى وحدها لا تحول ولا تزول .

ولا شريك لها في وحدانيتها .

تلك هي المحبة .



أَعْرُف ، يَا رَبِّي ،
أَنَّ الطَّرِيقَ إِلَى الْمَحَبَّةِ الَّتِي أَنْشَدَ
طَرِيقَ مَحْفُوفَ بِالْأَهْوَالِ
وَمَفْرُوشَ بِالشُوكِ وَالْحَصْنِ الْمَسْنَنِ ،
وَأَنَّ عَلَى سَالِكِهِ أَنْ يَدْمِي عَقْلَهُ وَقَلْبَهُ
قَبْلَ أَنْ تَدْمِي يَدَاهُ وَرِجْلَاهُ ،
وَأَنْ يَتَصَبَّبَ الْعَرْقُ مِنْ خِيَالِهِ وَإِرَادَتِهِ .
قَبْلَ أَنْ يَتَصَبَّبَ مِنْ جَبِينِهِ وَبَاقِي جَسْدِهِ ،
وَأَنْ تَلْهُثْ وَتَسْتَغْيِثْ «أَنَا» هـ
قَبْلَ أَنْ تَلْهُثْ وَتَسْتَغْيِثْ رَئَتَاهُ ،
وَأَنْ يُفْرَغَ كَشْكُولَهُ مِنْ مَحْتَواهُ

ليملأه بالمحبة التي تأبى أن تحصر ذاتها
في شيء دون باقي الأشياء .
أو في إنسان دون باقي الناس .
أو في زمانٍ بعينه
ومكانٍ بعينه .
مثلما تأبى أن تصنف أصنافاً :
فمحبة الوالدين للأولاد ،
ومحبة الأولاد للوالدين ،
ومحبة العاشق للمعشوق ،
والصديق للصديق ،
والطائر لوكره ،
والإنسان لسقوط رأسه .
وتأبى أن تُقاس بذراع
أو أن تُكال بصاع .
أو أن تُدرج في الحرارة

من الصفر وحٰنٰ الغليان.

كذلك تأبى المحبة

أن يكون المحبوب ملكاً للمحب.

فهي وحدها المالكة كلّ ما كان ،

وما هو كائن ،

وما سيكون ،

منذ الأزل

وإلى الأبد.

ولا شريك لها في ملكها.

أجل . إني لأعرف ، يا ربّي ،

أنَّ ذلك هو طريق المحبة ،

وأني سائر فيه .

ولكنني لا أعرف

أين أنا اليوم منه .

وكثيراً ما تساورني شكوكُ

في قارقي على السير
حتى النهاية .

وبخاصةٍ عندما تزحف على الظلمات الحالكات ،
وتهب العواصف العاتيات
من قيل أهل الأرض و قال لهم .
شهواتهم وزواتهم ،
وتکالبهم و تناحرهم ،
فيوشك زيت سراجي أن ينضب
ونوره أن يُسلم الروح .
إلا أنني في كل مرّة يدنو مني اليأس
لا ألبث أن أحسّ يداً حنوناً تُربّت كتفي
وأخرى تملأ سراجي بالزيت .
وإذا بنوره يتجدد ويتألق ويمتدّ .
وإذا بـي أبصر آثار أقدام
هنا وهناك .

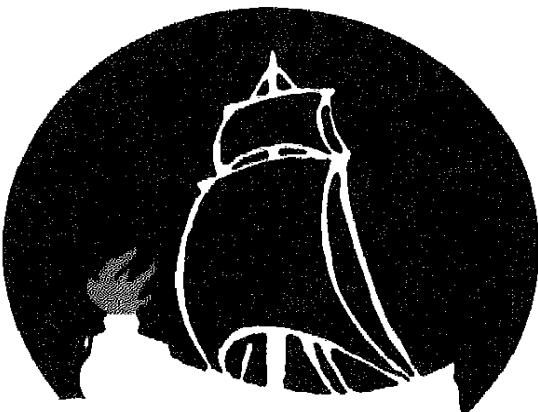
فستانس روحي ،
وتتجدد عزيمتي وتشتد ،
وأدرك أنني لست وحدي في الطريق ،
وأن رفاقاً سبقوني
لن ينسوني ويهملوني .

وعندئذٍ يعود قلبي
فيطفح بنعمة المحبة ،
وتعود روحي تغنى .
حتى إذا آذنت شمسي بالغروب
صفقت لها جوارحي ،
وأيقنت أن غروبها
سيكون شروقاً .

١٩٧٢/٨/٤ بسكنتا ،

طِفْلَكَ أَنَا يَا مَبْيَ !
وَهَذِهِ الْأَرْضُ، الْبَدْيَةُ، الْأَرْضِيَّةُ، الْعَزْنُونُ
الَّتِي دَفَعْتُمْنِي فِي حَمْنَانِهِ
لِيَسْتَدِعُوكُمْ أَمَّا
أَدْرَجْتُمْنِي إِلَيْكُمْ .

مُنْخَلْزُونُهُمْ



مع تحيات يحيى الصوفي
مؤسس ورئيس تحرير موقع
**القصيدة السورية**
Syrian Story